فقابلناه بمزيد التعظيم وسررنا بحسن صحتكم وما أبديتموه من لطف مودتكم فالله يرعى تلك الصحة ويلحظها ويديم هذه المحبة ويحفظها وقد أوضحتم أن سلفنا السعيد المنتقل الى رحمة ربه المجيد ضاعف الله حسناته وأحله أعالى جناته كان قد جعل فلانا وكيلا فى رؤية أموركم البهية على منهج السداد ونحن أيضا قررناه فى هذه الوظيفة وأوصيناه بالاهتمام فيما يتعلق بتلك الحضرة الشريفة وسيجد منا فى ذلك حسن المساعدة ودوام التسهيل والمعاضدة ثم ما ذكرتم من ارساله مع كريم خطابكم على يد القاصدين الواردين من عالى جنابكم قوبل بقبوله عند وصوله والمبعوث مع القاصدين المذكورين لناديكم الكريم ماهو موضح فى البطاقة المطوية مع هذا الرقيم والمرجو أن تتصل بيننا روابط الود على الدوام كما جمعتنا علاقة الاخوة فى الاسلام وصلى الله على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وأصحابه الاعلام غيوث الافضال وغايات الكمال

الباب السابع فى الجغرافيه والتاريخ

(ذكر منارة الاسكندرية)

قال المسعودى فاما منارة الاسكندرية فذهب الاكثرون من المصريين والاسكندرانيين ممن عنى باخبار بلدهم أن الاسكندر بن فيلبش المقدونى هو الذى بناها ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومن الناس من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومة هو الذى بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته باستيلائه على الاكثر من ممالك العالم فشهرت به وذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة يستدلون بها على ماقالوا والاسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ولا هاب ملكا يرد اليه فى بلده ويغزوه فى داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا وان الذى بناها جعلها على كرسى من الخارج على هيئة السرطان فى جوف البحر وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره منها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك واذا علت فى الفلك فأصبعه يشير بها نحوها فاذا انخفضت صارت يده سفلا تدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت فى الساعة التى قبلها وصوته مطرب وقد كان ملك الروم فى ملك الوليد بن عبد الله بن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء فجاءه مستأمنا الى بعض الثغور فورد بآلة حسنة ومعه جماعة

فجاء الى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك وأنه أراد قتله بموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وانه استوحش ورغب فى الاسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قبله وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما صارت الى الوليد تلك الاموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان هاهنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك فسأله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال ملوك الارض وذلك أن الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام فبنى لها أزجا تحت الارض وقنطرها الاقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها فى الهواء ألف ذراع والمرآة على علوها والدبابة جالوس حولها فاذا نظروا الى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوبوا المنجنيق من قرب منهم ونشروا أعلامها فيراها من بعد منهم فتحذر الناس وتحذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من هذا وعلموا انها مكيدة وحيلة فى أمرها فلما علم الخادم استفاضة ذلك وانه سيتم الى الوليد وانه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده وواطأ على ذلك فتمت حيلته وبقيت المنارة على ما ذكرنا الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان حوالى منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر يتخذ منها فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر ويقال ان ذلك من آلات اتخذها الاسكندر للشراب فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى ان الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها الان من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لان ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر على الاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوهم وكان من يدخلها يتيه فيها الا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها الكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة فتاهوا فيها وفيها طرق تؤول الى مهاو تهوى الى السرطان الزجاج وفيها مخارق الى البحر فتهورت دوابهم وفقد منهم عدد كثير وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهورهم كان على كرسى لها قد امها وفى المنارة مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه متطوعة المصريين وغيرهم وفى سنة تسع وسبعين وسبعمائة سقط رأس المنارة من زلزلة ويقال ان منارة الاسكندرية كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج وتلك القناطر على ظهر سرطان وكان فى المنارة ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض وكانت الدابة تصعد بحملها الى سائر البيوت من داخل المنارة ولهذه

البيوت طاقات تشرف على البحر وكان على الجانب الشرقي من المنارة كتابة عربت فاذا هي بنت هذه المنظرة قريبا بنت مرينوس اليونانية لرصد الكواكب وقال ابن وصيف شاه وقد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح وبنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية وجعلوا في وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة أشبار وكان ارتفاع القبة مائة ذراع فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فالقت شعاعها على ذلك الشيء فاحرقته فلم تزل على حالها الى أن غلب عليها البحر فنسفها ويقال ان الاسكندر انما عمل المنار الذي كان شبيها بها وقد كان أيضا عليه مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم فاحتال بعض ملوك الروم فوجه من أزالها وكانت من زجاج مدبر وقال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف وقد كان وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما أمر المستعين بنفيه الى برقة في سنة ثمان وأربعين ومائتين صار الى الاسكندرية من بلاد مصر فرأى جرة الشمس على علو المنارة التي بها وقت المغيب فقدر أنه يلزمه أن لا يفطر اذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الارض فأمر انسانا أن يصعد الى أعلى منارة الاسكندرية ومعه حجر وأن يتأمل موضع سقوط الشمس فاذا سقطت رمى بالحجر ففعل الرجل ذلك فوصل الحجر الى قرار الارض بعد صلاة العشاء الآخرة فجعل افطاره بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد اذا صام في مثل ذلك الوقت وكان عند رجوعه الى شرق رأى انه لا يفطر الا بعد العشاء الآخرة وعنده أن هذا فرضه وأن الوقتين متساويان وهذا غاية ما يكون من قلة العلم بالفرض ومجاري الشرق والغرب وقد ذكر ارسطاطاليس في كتاب الآثار العلوية أن بناحية المشرق الصيني جبلا شامخا جدا وأن من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه الى ثلاث ساعات من الليل وتشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات ومنارة الاسكندرية أحد بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الاسكندر بن فيليبش الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب في البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا في أعاليها مرآة عظيمة من نوع الاحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر اذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها فكانوا يراعون ذلك في تلك المرآة فيستعدون لهم قبل ورودهم وطول المنارة في هذا الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع فهدمت على طول الازمان وترادف الزلازل والامطار لان بلد الاسكندرية تمطر وليس سيلها سيل فسطاط مصر اذ كان الاغلب عليها أن لا تمطر الا اليسير وبناؤها ثلاثة أشكال فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل بناؤه بأحجار بيض يكون نحوا من مائة ذراع

وعشرة أذرع على التقريب ثم من بعد ذلك مثمن الشكل مبنى بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا وحواليه فضاء يدور فيه الانسان وأعلاها مدور وكان أحمد بن طولون رم شيأ منها وجعل فى أعلاه قبة من الخشب ليصعد اليها من داخلها وهى مبسوطة مورية بغير درج وفى الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يونانى طول كل حرف ذراع فى عرض شبر ومقدارها على جهة الارض نحو من مائة ذراع وماء البحر قد بلغ أصلها وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وبينها وبين مدينة الاسكندرية فى هذا الوقت نحو من ميل وهى على طرف لسان من الارض قد ركب البحر جنبتيه وهى مبنية على فم ميناء الاسكندرية وليست بالميناء القديم لان القديم فى المدينة العتيقة لا ترسى فيه المراكب لبعده عن العمران والميناء هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر وأهل الاسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحوا مما بين المدينة والمنارة فى هذا الوقت فغلب عليه ماء البحر فى المدة اليسيرة وان ذلك فى زيادة قال وتهدم فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلثمائة نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب فى ساعة واحدة على ما وردت به علينا الاخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية وذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من هذا الشهر وهو الخامس من كانون الآخر والتاسع من طوبة وكان لهذه المنارة مجمع فى يوم خميس العدس يخرج سائر أهل الاسكندرية الى المنارة من مساكنهم بما كلهم ولا بد أن يكون فيها عدس فيفتح باب المنار ويدخله الناس فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلهو ولا يزالون الى نصف النهار ثم ينصرفون ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو وكان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد فاذا رأى أهل المنار مايريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة فاذا رآها الحرس ضربوا الابواق والاجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو ويقال ان المنار كان بعيدا عن البحر فلما كان فى أيام قسطنطين ابن قسطنطين هاج البحر وغرق مواضع كثيرة وكائس عديدة بمدينة الاسكندرية ولم يزل يغلب عليها بعد ذلك ويأخذ منها شيأ بعد شئ وذكر بعضهم أنه قاسه فكان مائتى ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وهى ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهى مائة واحدى وعشرون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثانية مثمنة وهى احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وهى احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع وذكر ابن جبير فى رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا وأنه ذرع أحد جوانبه الاربعة فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فأناف على خمسين ذراعا وأن طول المنار أزيد من مائة وخمسين قامة وفى أعلاه مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه وقال

ابن عبد الحكم ويقال ان الذى بنى منار الاسكندرية كلوباطره الملكه وهى التى ساقت خليجها متى أدخلته الاسكندرية ولم يكن يبلغها انما كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وهى التى بلطت قاعه ولما استولى احمد بن طولون على الاسكندرية بنى فى أعلى المنارة قبة من خشب فأخذتها الرياح وفى أيام الظاهر بيبرس تداعى بعض أركان المنار وسقط فأمر ببناءما انهدم منه فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة وبنى مكان هذه القبة مسجدا وهدم فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة عند حدوث الزلزلة ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة على يد الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو باق الى يومنا هذا ولله در الوجيه الدروى حيث يقول فى منار الاسكندرية

وسامية الارجاء تهدى أخا السرى * ضياء اذا ما جندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا * فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابى أنجما
فخيل أن البحر تحتى غمامة * وأنى قد خيمت فى كبد السما

وقال ابن قلاقس من أبيات

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا * كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامى الفرع فى يده * للنون والنور أخبار وأجنار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت * خيل لها فى بديع الشعر مضمار

وقال الوزير أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد ربه

لله در منار اسكندرية كم * يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الانف فى عرنينه شمم * كأنه باهت فى دارة الافق
للنشآت الجوارى عند رؤيته * كموقع النوم فى أجفان ذى أرق

وقال عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الاسكندرية حتى غلب عليها البحر فصارت فى جوفه ألا ترى الابنية والاساسات فى البحر الى الآن عيانا وقال عبد الله بن عمرو عجائب الدنيا أربعة مرآة كانت معلقة بمنارة الاسكندرية فكان يجلس الجالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر وذكر الثلاثة

(ذكر عمود السوارى)

هذا العمود حجر أحمر منقط وهو من الصوان الماتع كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الاسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو

سلوكه اذا قدموا ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وانه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ويقال ان ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا وقطره خمسة أذرع وذكر بعضهم أن طوله بقاعدتيه اثنان وستون ذراعا وسدس ذراع وهو على نشر طوله ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع فجملة ذلك خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع وطول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا وطول القاعدة العليا سبعة أذرع ونصف قال المسعودى وفى الجانب الغربى من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا يحملون ما عملوا بعد النقر فاما العمد والقواعد والرؤس التى يسميها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون قبل حدوث النصرانية بثلثين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم فى العالم عمود مثله وقد رأيت فى جبل اسوان أخا هذا العمود وقد هندس ونشر ولم يفصل من الجبل ولم يحمل ما ظهر منه وانما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم انتهى وكان بالاسكندرية من العمد العظام وأنواع الحجارة والرخام الذى لا تقل القطعة منه الا بألوف من الناس وقد علقت بين السماء والارض على فوق المائة ذراع وفوق رؤس أساطين دائر الاسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا الى العشرين ذراعا والحجر فوقه عشرة أذرع فى عشرة أذرع فى سمك عشرة أذرع بغرائب الالوان وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الارض على ربوة عظيمة بازاء باب البلد طوله خمسمائة ذراع وعرضه على النصف من ذلك وبابه من أعظم بناء وأتقنه كل عضادة منه حجر واحد وعتبته حجر واحد وكان فيه نحو مائة اسطوانه وبازائه اسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها غلظها ستة وثلاثون شبرا وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء وتحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار والاسطوانة منزلة فى عمود من حديد قد خرقت به الارض فاذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك وربما وضع تحتها الحجارة فطحنتها الشدة حركتها وكانت هذه الاسطوانة احدى عجائب الدنيا وقد زعم قوم أنها مما عمل الجن لسليمان بن داود عليهما السلام كما هى عادتهم فى نسبة كل ما يستعظمون عمله الى أنه من صنيع الجن وليس كذلك بل كانت مما عمل القدماء من أهل مصر وكان فى وسطه قبة ومن حولها أساطين وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كاحسن ما أنت راء من الصنائع وقيل ان بعض ملوك مصر دخل الاسكندرية فأعجبه هذا القصر وأراد أن يبنى مثله فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته فاسنهم الا من اعترف بعجزه عن مثله الا شيخا منهم فانه التزم أن يصنع مثله فسر الملك ذلك وأذن له فى طلب ما يحتاج اليه من المؤن والآلات

والرجال فقال ائتونى بثورين مطيقين وعجلة كبيرة ففى الحال أتى بذلك فمضى الى المقابر القديمة وحفر منها قبرا أخرج منه جمجمة عظيمة رفعها عدة من الرجال على العجلة فاجرها الثوران مع قوتهما الابعد جهد وعناء فلما وقف بها بين يدى الملك قال أصلح الله سيدنا ان أتيتنى بقوم رؤسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن اقامة مثل ذلك القصر وقد ذكر أنه كان بالاسكندرية ضرس انسان عند قصاب يزن به اللحم زنته ثمانية أرطال ويقال ان عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية أحد سبعة أعمدة أتى بأحدها البتون بن مرة العادى وهو يحمله تحت أبطه من جبل بريم الاحمر قبلى اسوان الى الاسكندرية فانكسر ضلعه لانه كان ضعيف القوى فى قومه فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد وقال ليتنى فديته بنصف ملكى وجاء بعمود آخر بجدر بن سنان الثمودى وكان قويا فحمله من اسوان تحت أبطه وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود فاقام العمد السبعة الجارود بن قطن المؤتفكى وكان بناؤها بعد أن اختاروا لها طالعا سعيدا كما هى عادتهم فى عامة أعمالهم وقد ذكر غير واحد أن الصخور فى القديم من الدهر كانت تلين فعمل منها أعمدة تاعط ومارب وبينون وماتر اليمن وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر وأن كل شئ كان يتكلم قال أمية بن أبى الصلت

واذهم لالبوس لهم عراة * واذ صخر السلام لهم رطاب

وقال قوم عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة وذلك حيث انتهت علوم أهل المغرب الى خمس فرق وهم أصحاب الرواق هذا وأصحاب الاسطوانة وكانوا بعلبك وأصحاب المثال وهم بانطاكية وأصحاب البرابى وكانوا بصعيد مصر والمشاؤون وكانوا بمقدونية وكأنى بمن قل علمه ينكر على ايراد هذا الفصل ويراه من قبيل المحال ومما وضعه القصاص ويجزم بكذبه فلا يوحشنك حكايتى له واسمع قول الله تعالى عن عاد قوم هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة أى طولا وعظم جسم قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم وقيل على خلق قوم نوح وقال وهب بن منبه كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم وروى شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال ان كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الامة لم يطيقوه وان كان أحدهم ليغمز بقدمه الارض فيدخل فيها وروى عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافرى عن ابن بجرة قال استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام فى قحف رجل من العمالق وعن زيد بن أسلم بلغنى أن الضبعة وأولادها ربين فى حجاج عين رجل من العمالق وقال تعالى

ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد قال المبرد وقولها يعنى الخنساء رفيع العماد انما تريد الطول يقال رجل معمد يريد طويلا ومنه قوله تعالى ارم ذات العماد أى الطوال وقال البغوى سموا ذات العماد لانهم كانوا أهل عمد سيارة وهو قول قتادة ومجاهد والكلبى ورواية عطاء عن ابن عباس وقال بعضهم سموا ذات العماد لطول قاماتهم قال ابن عباس يعنى طولهم مثل العماد قال مقاتل كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعا وفى كشاف الزمخشرى لم يخلق مثلها مثل عاد فى البلاد عظم أجرام وقوة وكان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحى فيهلكهم وقد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد كنز بمصر فيه ضلع انسان طوله أربعة عشر شبرا فى عرض ثلاثة أشبار واعلم أن أعين بنى آدم ضيقة وقد نشأت نفوسهم فى محل صغير فاذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه الا ما يشاهدونه أو يألفونه عجلوا الى الارتياب فيه وسارعوا الى الشك فى الخبر عنه الا من كان معه علم وفهم فانه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله أو رده وكيف يرد مثل هذه الاخبار وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فى السماء ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن وذكر محمد عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع العنبسى الغرناطى فى كتاب تحفة الالباب قال نقل الشعبى فى كتاب سير الملوك أن الضحاك ابن علوان لما هرب منه لام بن عامر الى ناحية الشمال أرسل فى طلبه أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين خرج أحدهما قاصدا الى بلغار والآخر الى باشقرد فأقام أولئك الجبارون فى أرض بلغار وفى باشقرد قال الاقليشى وقد رأيت صورهم فى باشقرد ورأيت قبورهم بها فكان مما رأيته ثنية أحدهم طولها أربعة أشبار وعرضها شبران وكان عندى فى باشقرد نصف أصل الثنية أخرجت لى من فكه الاسفل فكان عرضها شبرا ووزنتها ألف مثقال أنا وزنتها بيدى وهى الآن فى دارى فى باشقرد وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعا وفى بيت بعض أصحابى فى باشقرد عضد أحدهم طوله ثمانية وعشرون ذراعا وأضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كالوح الرخام وأخرج الى نصف رسغ يد أحدهم فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدى جميعا قال ولقد رأيت فى بلد بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلا طوالا كان طوله أكثر من سبعة أذرع وكان يسمى دلق وكان يأخذ الفرس تحت ابطه كما يأخذ الانسان الطفل الصغير وكان اذا وقع القتال بتلك الناحية يقاتل بشجرة من شجر البلوط يمسكها كالعصا فى يده لو ضرب بها الفيل قتله وكان خيرا متواضعا كلما التقانى سلم على ورحب بى وأكرمنى وكان رأسى لا يصل الى حقوه وكان له أخت على طوله رأيتها فى بلغار مرارا عديدة

قال لى القاضى يعقوب بن النعمان يعنى قاضى بلغار ان هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان من أقوى أهل بلغار ضمته الى صدرها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته قال ولم يكن فى بلغار حمام تسعهم الاحمام واحدة واسعة الابواب انتهى وقد حدثنى الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفريابى عن أبيه أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من أفريقية فاذا جثة رجل قدر عظم رأسه كثورين عظيمين ووجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند وهو قلم عاد وحروفه مقطعة ما نصه أنا كوش بن كنعان أين الملوك من آل عاد ملكت بهذه الارض ألف مدينة وبنيت بها على ألف بكر وركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف حمر وصفر وشهب وبيض ودهم ثم لم يغن عنى ذلك شيأ وجاءنى صائح فصاح بى صيحة أخرجتنى من الدنيا فمن كان عاقلا ممن جاء بعدى فليعتبر بى وأنشد

يا واقفا يرعى السهى * برسم ربع قد وهى
قف واستمع ثم اعتبر * ان كنت من أهل النهى
بالامس كنا فوقها * واليوم صرنا تحتها
لكل حى مدة غاية * لكل أمر منتهى

قال فأمر السلطان أبو بكر بن يحيى الحفصى صاحب تونس بطم فطم القبر قال مؤلفه رحمه الله تعالى وأنا أدركت شيأ من ذلك وهو أنه ترافع فى بعض الايام طائفة من الحجارين الى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام بضع وتسعين وسبعمائة وقد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم وهم أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلى قاعة الجبل من بحريها فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة فاجتمعوا على قطع ما بين يدى هذا الحجر طمعا فى وجود مال فانتهى بهم القطع الى عمود عظيم قائم فى قلب الجبل فلما تمموا أقبلوا يعملون عليه حتى تكسر قطعا فاذا هو مجوف وانسان قائم على قدميه بطوله وتناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة فاقتسموها وتنافسوا فى قسمتها واختلفوا حتى اشتهر أمرهم وترافعوا الى السلطان فبعث من كشف المغار فوجدا الحجر والعمود وقد تكسر فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ولم يجد من يعرف ما قد كتب على الحجر وتسامع الناس بالخبر فأقبلوا الى المغار وعبثوا برمة الميت فأخبرنى من شاهد سنا من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة وأن عظم ساقه فيما بين قدمه الى ركبته خمسة أذرع فيجىء هذا من حساب طوله عشرين ذراعا وأزيد ودماغ سن واحدة من أسنانه فى قدر الباذنجانة ما هو الا كالقبة الكبيرة وأخبرنى السيد الشريف قاضى القضاة بدمشق شهاب الدين أحمد بن على بن ابراهيم الحسينى المعروف بابن عدنان وبابن أبى الجن أنه وقف فى سنة أربع عشرة وثمانمائة بمقبرة باب الصغير من دمشق على قبر ليدفن فيه ميت لهم

فلما تهيأ القبر ولم يبق الا أن يدلى فيه الميت انخسف وخرج من الخسف ذباب كثير كار زرق الالوان حتى كادت تظلهم فنزل الحفار فى الخسف فاذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعا وفيه بطوله ميت قد صار كالرماد وأخبرنى أيضا أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس انسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة وهى قدر البطيخة وانه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواق بالرطل الشامى وان القطعة التى انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامى فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرى والله تعالى أعلم

(ذكر المقياس)

قال ابن عبد الحكم كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام ووضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا مقياسا بانصنا وهو صغير الذرع ومقياسا باخميم ووضع عبد العزيز ابن مروان مقياسا بحلوان وهو صغير ووضع أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهى المسماة الآن بالروضة وهو أكبرها حدثنا يحيى بن بكير قال أدركت المقياس يقيس فى مقياس منف ويدخل بزيادته الى الفسطاط هذا ما ذكره ابن عبد الحكم قال التيفاشى ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة وأسسه ولم يتمه فأتم المتوكل بناءه وهو الموجود الآن وقال صاحب مباهج الفكر المقياس الذى بانصنا ينسب لاشمون بن قفطيم بن مصر ويقال انه من بناء دلوكة وبناؤه كالطيلسان وعليه أعمدة بعدد أيام السنة من الصوان الاحمر ورأيت فى بعض المجاميع ما نصه قال زيد بن حبيب وجدت فى رسالة منسوبة الى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال لما فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن مدّه فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره وان فرط الاستسعار يدعوهم الى الاحتكار ويدعو الاحتكار الى تصاعد الاسعار بغير قحط فكتب عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص يسأله عن شرح الحال فأجاب فقال عمرو انى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا والنهايتين المخوفتين فى الزيادة والنقصان وهو الظمأ والاستحجار اثنتى عشرة ذراعا فى النقصان وثمان عشرة ذراعا فى الزيادة هذا والبلد فى ذلك محفور الانهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط وخبير العمارة فيه فاستشار عمر بن الخطاب على بن أبى طالب فى ذلك فأمره أن يكتب اليه بان يبنى مقياسا وأن يفض ذراعين على اثنتى عشرة ذراعا وأن يقر ما بعدها على الاصل وأن ينقص من ذراع بعد الست عشرة ذراعا أصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له ما أراد من حال الارجاف وزوال ما منه كان يخاف بان يجعل الاثنتى عشرة ذراعا أربع عشرة ذراعا لان كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا فجعلها ثمانية وعشرين من أولها

الى الاثنتى عشرة ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثنتى عشرة ثمانية وأربعين أصبعا وهى الذراعان وجعل الاربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثمانى عشرة والثمانى عشرة عشرين ذراعا وهى المستقرة الآن وقال بعضهم كتب الخليفة جعفر المتوكل الى مصر يأمر ببناء المقياس الجديد الهاشمى فى الجزيرة سنة سبع وأربعين ومائتين وكان الذى يتولى أمر المقياس النصارى فورد كتاب أمير المؤمنين المتوكل فى هذه السنة على بكار بن قتيبة قاضى مصر بان لا يتولى ذلك الا مسلم يختاره فاختار القاضى بكار لذلك أبا الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤدب وكان محدثا فأقامه القاضى بكار لمراعاة المقياس وأجرى عليه الرزق وبقى ذلك فى ولده الى اليوم وقال صاحب المرآة المقياس الظاهر الآن بناه المأمون وقيل انما بناه أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك وثر فجدده المأمون وبنى أحمد بن طولون مقياسين أحدهما بقوص وهو قائم اليوم والآخر بالجزيرة وقد انهدم قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى العود الذى يطلع به المقسى قياس النيل فى كل يوم بزيادة النيل

قد قلت لما أتى المقسى وفى يده * عود به النيل قد عودى وقد نودى
أيام سلطاننا سعد السعود وقد * صح القياس بجرى الماء فى العود

(من حسن المحاضره فى أخبار القاهرة للسيوطى)

(ذكر البشارة بوفاء النيل)

جرت العادة كل سنة اذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشيرا بذلك الى البلاد لتطمئن قلوب العباد وهذه عادة قديمة ولم يزل كتاب الانشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة . فمن انشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين أيوب نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا وأخفاها سبوغا وأصفاها ينبوعا وأسناها مندفوعا وأمدها بحر مواهب وأعمها احسن عواقب النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره ويرمى النبات بجره ويحيى مطلعه الحيوان ويجنى ثمرات الارض صنوان وغير صنوان وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها ويوضح معنى قوله تعالى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فاسفر وجه الارض وان كان تنقب وأمن يوم بشراه من كان خائفا يترقب ورأينا الابانة عن لطائف الله التى حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقد أعلمناك لتستوفى حقه من الاذاعة وتبعده من الاضاعة وتتصرف على ما نصرفك من الطاعة وتشهر ما أورده البشير من البشرى بابانته وعقده بايصال رسمه مهنا على عادته وكتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر عن السلطان الى نائب السلطنة بجلب بشارة وفاء النيل أعز الله أنصار المقر

وسره بكل مهجة وهناه بكل مقدمة سرور تغدو للخصب والبركة منتجه وبكل نعمى لاتصبح الا تحت السحاب متوجة وبكل رحمى لايستهدلايامها الباردة ولا لياليها المثلجة هذه المكاتبة تتضمن أن نعم الله وان كانت متعددة ومنحه وان غدت بالبركات مترددة ومننه وان أصبحت الى القلوب متودده فان أشملها وأكملها وأجلها وأفضلها وأجزلها وأنهلها وأعمها وأضمها وألمها نعمة أجزلت المنن والمنح وأنزلت فى ابرك سفح المقطم أغز وسفح وأتت بما يعجب الزراع ويجل الهراع ويعجز البرق اللماع ويغل القطاع ويقل الاقطاع وتبعث أفواهه وأفواجه وعمد خطاها أمواهه وأمواجه ويسبق وفد الريح من حيث يتبرى ويغبط مريخه الاحمر القمر لان بيته السرطان كما يغبط الحوت لانه بيت المشترى ويأتى عجبه فى الغد باكثر من اليوم وفى اليوم باكثر من الامس ويركب الطريق مجدا فان ظهر بوجهه حمرة فهى ما يعرض للمسافر من حر الشمس ولو لم تكن شفته طويلة لما قيست بالذراع ولولا أن مقياسه أشرف البقاع لما اعتبر ما تأخر من ماء حوله الماضى بقاع بينا يكون فى الباب اذا هو فى الطاق وبينا يكون فى الاحتراق اذا هو فى الاختراق للاغراق وبينا يكون فى المجارى اذا هو فى السوارى وبينا يكون فى الجباب اذا هو فى الجبال وبينا يقال لزيادته هذه الامواه اذ يقال لغلاته هذه الاموال وبينا يكون ماء اذ أصبح جسرا وبيناهو يكسب تجارة قد أكسب بحرا وبينا يفسد عراه قد أتى بعرار جسور على الجسور جيشه الكرار وكم أمست التراع منه تراع والبحار منه تحار كم حسنت مقطعاته على مر الجديدين وكم أعانت مراره مقياسه على العز ومن بلاد سيس على العودين أتم الله لطفه فى الاتيان به على التدريج وأجراه بالرحمة الى نقص العيون بالتفرج والقلب بالتفريج فاقبل جيشه بمواكبه وجاء يطاعن الجذب بالصوارى من مراكبه ويصافف لجاجة الجسور فى بيداء لجه ويصاقف القحط بالتراس من بركه والسيوف من خلجه ولما تكامل اباه وصح فى ديوان الفلاح والفلاحة حسابه وأظهر ما عنده من خزائن التيسير وودائعه ولقط عموده حمل ذلك على أصابعه وكانت الستة عشر ذراعا تسمى ماء السلطان نزلنا وحضرنا مجلس الوفاء المعقود واستوفينا شكر الله تعالى بفيض ماهو من زيادته محسوب ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود ووقع تيار بين أيدينا سطورا يفوق وعلمت يدنا الشريفة بالخلوق وحمدنا السير كما حمدنا السرى وصرفناه فى القرى للقرى ولم نحضره فى العام الماضى فعملنا له من الشكر شكرانا وعمل هو ما جرى وحضرنا الى الخليج واذا به أمم قد تلقونا بالدعاء المجاب وقرظونا فامرنا ماءه أن يحثو من سده فى وجوه المداحين التراب ومر يبدى المسار ويعيدها ويزور منازل القاهرة ويعودها واذا سئل عن أرض الطبالة قال جنتنا بليلى وعن خلجها قال وهى جنت بغيرنا وعن بركة الفيل قال وأخرى بنا مجنونة لانريدها

وما برح حتى تعوض عن القيعان البقيعة من المراكب بالسرر المرفوعة ومن الاراضى المحروثة من جوانب الآدر بالزرابى المبثوثة وانقضى هذا اليوم عن سرور لمثله فليحمد الحامدون وأصبحت مصر جنة فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وأهلها فى ظل الامن خالدون فليأخذ حظه من هذه البشرى التى ما كتبناها حتى كتبت بها الرياح الى نهر المجرة الى البحر المحيط ونطقت بها رحمة الله تعالى الى مجاورى بيته من لابسى النقوى ونازعى المخيط وبشرت بها مطايا المسير الذى يسير من قوص غير منقوص ويتشارك بها الابتهاج فى العالم فلا مصر دون مصر بها مخصوص والله تعالى يجعل الاولياء فى دولتنا يبتهجون بكل أمر جليل وجيران الفرات يفرحون بجريان النيل . وكتب الصلاح الصفدى بشارة الى بعض النواب فى بعض الاعوام ضاعف الله نعمة الجناب وسر نفسه بانفس بشرى وأسمعه من الهناء كل آية أكبر من الاخرى وأقدم عليه من المسار ما يحرز ثناءه ويحرى وساق اليه كل طليعة اذا تنفس صبحها تفرق الليل وتفرى وأورد لديه من أنباء الخصب ما يتبرم به محل المحل ويتبرى هذه المكاتبة الى الجناب العالى نخصه بسلام يرى كالماء انسجاما ويروق كالزهر ابتساما ونتحفه بثناء جعل المسك له ختاما وضرب له على الرياض المتناخة خياما ونقص عليه من نبأ النيل الذى خص الله البلاد المصرية بوفادة وفائه وأغنى به قطرها عن القطر فلم تحتج الى مد كافه وفائه ونزهه عن منة الغمام الذى ان جاد فلا بد من شهقة رعده ودمعة بكائه فهى الارض التى لا يذم للامطار فى جوها مطار ولا يزم للقطار فى نعمتها قطار ولا ترمد الانواء فيها عيون النوار ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورؤس الجبال ولا تفقد فيها حلى النجوم لاندراج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس ولا يقتسك فى سمائها المساكين كما قيل بجبال الشمس وأين أرض يخدج عجاجها بابل العجاج ويزدحم فى ساحاتها أفواج الامواج من أرض لا تنال السقيا الا بحرب لان القطر سهام والضباب عجاج قد انعقد ولا يعم الغيث بقاعها لان السحب لا تراها الا بسراج البرق اذا اتقد فلو خاصم النيل مياه الارض لقال عندى قبالة كل عين اصبع ولوفاخرها لقال أنت بالجبال أثقل وأنا بالملق أطبع والنيل له الآيات الكبر وفيه العجائب والعبر منها وجود الوفا عند عدم الصفا وبلوغ الهرم اذا احتدوا صطدم وأمن كل فريق اذا قطع الطريق وفرح قطان الاوطان اذا كروهو كما يقال . لطان وهو أكرم منتدى وأعذب محتبى وأعظم مجتدى الى غير ذلك من خصائصه وبراعته مع الزيادة من نقائصه وهو أنه فى هذا العام المبارك جذب البلاد من الجدب وخلصها بذراعه وعصمها بخنادقه التى لا تراع من يراعه وحصنها بسوارى الصوارى تحت قلوعه وماهى الا عمد قلاعه وراعى الادب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا فى كل يوم بحر قاعه فى رقاعه حتى اذا أكمل الستة عشر ذراعا وأقبلت سوابق الخيل سراعا وفتح أبواب الزحة بتغليقه

وجدّ فى طلب تخليقه تضرع بمد ذراعه الينا وسلم عند الوفاء باصابعه علينا ونشر علم ستره وطلب الكرم طباعه جبر العالم بكسره فرسمنا بان يخلق ويعلم تاريخ هنائه ويعلق فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوق موجه ويهيل كثيب سدّه هول هيجه ودخل يدوس زرابىّ الدور المبثوثه ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثه ومرق كالسهم من قسى قناطره المنكوسة وعلاه زبد حركته ولولا ظهرت فى باطنه من بدورانائه أشعتها المعكوسة وبشر بركة النيل ببركة الفال وجعل المجنونة من تياره المتحدر فى السلاسل والاغلال وملأ كف الرجاء بأموال الامواه وازدحمت فى عبارة شكره أفواج الافواه وأعلم الاقلام بحجزها عما يدخل من خراج البلاد وهنأت طلائعه بالطوالع التى نزلت بركاتها من الله على العباد وهذه عوائد الالطاف الالهية بنا لم نزل نجلس على موائدها ونأخذ منها امانيه لرعايانا من فوائدها ونخص بالشكر قوادمها فهى تدب حولنا وتدرج ونخص قوادمها بالثناء والمدح والحمد فهى تدخل الينا وتخرج فليأخذ الجناب العالى حظه من هذه البشرى التى جاءت بالمن والمنح وانهلت أياديها المغدقة بالسح والسفح وليتلقاها بشكر يضى عبه فى الدجى أديم الافق ويتخذها عقدا تحيط منه بالعنق الى النطق وليتقدم الجناب العالى بان لا يحرك الميزان فى هذه البشرى بالجباية لسانه وليعط كل عامل فى بلادنا بذلك أمانه وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى فى اسقاط الجباية خيانة والله يديم الجناب العالى اقص الانباء الحسنة عليه ويمتعه بجلاء عرائس التهانى والافراح لديه. وكتب الاديب تقىّ الدين أبو بكر بن حجة بشارة عن الملك المؤيد شيخ سنة تسع عشرة وثمانمائة ونبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا فيه بالحسنى وزيادة وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجل عادة وخلق أصابعه ليزول الايهام فاعلن المسلمون بالشهادة كسرى بمسرى فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا واتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه وقبل ثغور الاسلام فأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها اليه وشب خريره فى الصعيد بالقصب ومدّ سبائكه الذهبية الى جزيرة الذهب فضرب الناصرية واتصل بأم دينار وقلنا لولا أنه صيغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحرار وأطال الله عمر زيادته فتردد الى الآثار وعمت البركة فأجرى سواقى مكة الى أن غدت جنة تجرى من تحتها الانهار وحضن مشتهى الروضة فى صدره وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم وأرشفه على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الابيات وسقى الارض سلافة الحمرية فخدمته بحلو النبات وأدخله الى جنات النخيل والاعناب فالقى النوى والحب فارضع جنين النبت وأحيى له أمهات العصف والاب وصافحته كفوف الموز فتمها بخواتمه العقيقية ولبس الورد تشريفه

وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية ونسي الزهري بحلاوة لقائه مرارة النوى وهامت به مخدرات الاشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى واستوفى البنات ما كان له في ذمة الرى من الديون ومازج الحوامض بحلاوة فهام الناس بالسكر واللبون وانجذب اليه الكباد وامتد ولكن قوى قوسه لما حظى منه بسهم لا يرد ولبس شربوش الاترج وترفع الى أن لبس بعده التاج وفتح منشور الارض اعلامه بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج فتناول مقالم الشنبر وعلم باقلامها ورسم لكل سد بالافراج وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بخلق بشائره وأشار بأصابعه الى قتل المحل فبادر الخصب الى امتثال أوامره وحظى بالمعشوق وبلغ من كل منية مناه فلا سكن على البحر الا تحرك ساكنه بعد ما تفقه وأتقن باب المياه ومد شفاه أمواجه الى تقبيل فم الخور وزاد بسرعة فاستحلى المصريون زائده على الفور ونزل في بركة الحبش فدخل التكرور في طاعته وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته وأظهر في مسجد الخضر عين الحياة فاقر الله عينه وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه وطلب المالح رده بالصدر وطعن في حلاوة شمائله فاشعر الاوقد ركب عليه ونزل في ساحله وأمست دارات دوائره على وجنات الدهر عاطفه وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالخائفة ومال شبق النخيل اليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالفه وأمست سود الجوارى كالحسنات على حمرة وجناته وكلما زاد زاد الله في حسناته فلا فقير سد الا حصل له من فيض نعماه فتوح ولا ميت خليج الا عاش به ودبت فيه الروح ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع فقال له المقياس عندى قبالة كل عين أصبع ونشر أعلام قلاعه وحمل وله على زى الجزيرة زنجرة وراء أن يهجم على غير بلاده فبادر اليه عزمنا المؤيدى وكسره وقد آثرنا المقر بهذه البشرى التى سرى فضلها بر او بحرا وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالا وصدرا ليأخذ حظه من هذه البشارة البحرية بالزيادة الوافرة وينشق من طيبها نشرا فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها في كل وقت مشنفا ولا برح من نيلها المبارك وانعامنا الشريف على كل الحالين في وفا

(من حسن المحاضرة في أخبار القاهرة للسيوطى)

جامع عمـــــــرو

قال ابن المتوج في ايقاظ المستغفل واتعاظ المتأمل هو الجامع العتيق المشهور بتاج الجوامع قال الليث بن سعد ليس لاهل الراية مسجد غيره وكان الذى حاز موضعه ابن كلثوم التجيبى ويكنى أبا عبد الرحمن ونزله في حصارهم الحصن فلما رجعوا من الاسكندرية سأل عمرو قيبة في منزله هذا يجعله مسجدا فقال قيبة فاني أتصدق به على المسلمين فلما اليهم فبنى في سنة احدى وعشرين

وكان طوله خمسين ذراعا في عرض ثلاثين ويقال انه وقف على اقامة قبلته ثمانون رجلا من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت والدرداء وأبو ذر وأبو بصرة ومحمية ابن جزء الزبيدي ونبيه بن صواب وفضالة بن عبيد وعقبة بن عامر ورافع بن مالك وغيرهم ويقال انها كانت مشرقة جدا وان قرة بن شريك لما هدم المسجد وبناه في زمن الوليد تيامن قليلا وذكر أن الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة كانا يتيامنان اذا صليا فيه ولم يكن للمسجد الذي بناه عمرو محراب مجوف وانما قرة بن شريك جعل المحراب المجوف وأول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ عامل الوليد على المدينة حين هدم المسجد النبوي وزاد فيه وأول من زاد في جامع عمرو مسلمة بن مخلد وهو أمير مصر سنة ثلاث وخمسين شكى الناس اليه ضيق المسجد فكتب الى معاوية فكتب معاوية اليه يأمره بالزيادة فيه فزاد فيه من بحريه وجعل له رحبة من البحري وبيضه وزخرفه ولم يغير البناء القديم ولا أحدث في قبلته ولا غربيه شيأ وكان عمرو قد اتخذ منبرا فكتب اليه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يعزم عليه في كسره أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك فكسره وذكر أنه زاد من شرقيه حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو بن العاص وفرشه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء وقال في كتاب الجند العربي ان مسلمة نقض جميع ما كان عمرو ابن العاص بناه وزاد فيه من شرقيه وبنا فيه صوامع في أركانه الاربعة برسم الاذان ثم هدمه عبد العزيز ابن مروان أيام امرته بمصر في سنة تسع وسبعين وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ثم في سنة تسع وثمانين أمر الوليد نائبه بمصر برفع سقفه وكان مطاطيا ثم هدمه قرة بن شريك بامر الوليد سنة اثنتين وتسعين وبناه فكانوا يجمعون في قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه في رمضان سنة ثلاث وتسعين ونصب فيه المنبر الجديد في سنة أربع وتسعين وعمل فيه المحراب المجوف وعمل للجامع أربعة أبواب ولم يكن له قبل الا بابان وبنى فيه بيت المال بناه اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج بمصر سنة تسع وتسعين فكان مال المسلمين فيه ثم زاد فيه صالح بن علي ابن عبد الله بن عباس وهو يومئذ أمير من قبل السفاح وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائة فادخل فيه دار الزبير بن العوام وأحدث له بابا خامسا ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشمي وهو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد في شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر بن الحسين وهو أمير مصر من قبل المأمون في جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة ومائتين فتكامل ذرع الجامع مائتين وتسعين ذراعا بذراع العمل طولا في مائة وخمسين عرضا ويقال ان ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك سوى الازقة المحيطة بجوانبه الثلاثة ونصب عبد الله بن طاهر اللوح الاخضر فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح فجعل أحمد بن محمد الجيش هذا اللوح مكانه وهو الباقي الى اليوم ولما تولى

الحارث بن مسكين القضاء من قبل المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين أمر ببناء هذه الرحبة لينتفع الناس بها وبلط زيادة ابن طاهر وأصلح السقف ثم زاد فيه أبو أيوب احمد بن محمد بن شجاع صاحب الخراج في أيام المعتصم في سنة ثمان وخمسين ومائتين ثم وقع في مؤخر الجامع حريق في ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين فامر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته على يد الجيض فاعيد على ما كان وانفق فيه ستة آلاف وار بعمائة دينار وكتب اسم خمارويه في دائرة الرواق الذي عليه اللوح الاخضر وزاد فيه أبو حفص العباسي أيام نظره في قضاء مصر خلافة لاخيه الغرفة التي يؤذن فيها المؤذنون في السطح وذلك في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخازن رواقا مقداره تسعة أذرع وذلك في رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ومات قبل اتمامه فاتمه ابنه علي وفرغ في رمضان سنة ثمان وخمسين ثم بنى فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس بامر العزيز بالله النوارة التي تحت قبة بيت المال وهو أول من عمل فيه فوارة وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة بيض المسجد ونقشت ألواحه وذهب على يد برجوان الخادم وعمل فيه تنوير يوقد كل ليلة جمعة وفي سنة ثلاث وأربعمائة أنزل اليه من القصر بالف ومائتين وتسعين مصحفا في ربعات فيها ما هو مكتوب بالذهب كله ومكن الناس من القراءة فيها وأنزل اليه تنور من فضة استعمله الحاكم بامر الله برسم الجامع فيه مائة ألف درهم فضة فاجتمع الناس وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبات الجامع حتى أدخل به ثم في أيام المستنصر في رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة زيد في المقصورة في شرقيها وغربيها وعمل منطقة فضة في صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين وجعل لعمودي المحراب أطواقا فضة فلم يزل ذلك الى أن استبد السلطان صلاح الدين بن أيوب فأزاله وفي ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة عمل مقصورة خشب ومحراب ساج منقوش بعمودي صندل برسم الخليفة تنصب له في زمن الصيف وتقلع في زمن الشتاء اذا صلى الامام في المقصورة الكبيرة وفي سنة أربع وستين وخمسمائة تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا في القاهرة حكما جائرا فتشعث الجامع فلما استبد السلطان صلاح الدين جدده في سنة ثمان وستين وخمسمائة ورخمه ورسم عليه اسمه وعمر المنظرة التي تحت المأذنة الكبيرة وجعل لها سقاية ولما تولى تاج الدين ابن بنت الاعز قضاء الديار المصرية أصلح ما مال منه وهدم ما به من الغرف المحدثة وجمع أرباب الخبرة واتفق الرأي على ابطال جواز الماء الى السقية وكان الماء يصل اليها من بحر النيل فامر بابطاله لما كان فيه من الضرر على جدار الجامع وحدث السلطان بيبرس في عمارة ما تهدم من الجامع فرسم بعمارته وكتب اسم الظاهر بيبرس على اللوح الاخضر وجليت العمد كلها وبيض الجامع باسره وذلك في رجب سنة ست وستين وستمائة ثم جدد في أيام المنصور قلاوون

سنة سبع وثمانين وسبعمائة ولما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين وسبعمائة تشعث الجامع فجدده سلار نائب السلطنة ثم تشعث فى أيام الظاهر برقوق فعمره الرئيس برهان الدين ابراهيم بن عمر المحلى رئيس التجار وأزال اللوح الاخضر وجدد لوحا آخر بدله وهو الموجود الآن وانتهت عمارته فى سنة أربع وثمانمائة وقال ابن المتوج ذرع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذراع البر المصرى القديم وهو ذراع الحصر المستعمل الآن وذرعه بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا وممن تولى امامة هذا الجامع أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانى وهو أول من سلم فى الصلاة تسليمتين بهذا الجامع بكتاب ورد عليه من المأمون يأمره بذلك وصلى خلفه الامام الشافعى حين قدم مصر فقال هكذا تكون الصلاة ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب ولا أحسن ولما تولى القضاء حسن بن الربيع بن سليمان فى زمن المتوكل سنة أربعين ومائتين أمر بترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى الصلاة وأمر أن تصلى التراويح وكانت تصلى قبل ذلك ست تراويح قال القضاعى ولم يكن الناس يصلون بالجامع صلاة العيد حتى كانت سنة ست وثلثمائة صلى فيها رجل يعرف بعلى بن أحمد بن عبد الملك الفهمى صلاة الفطر ويقال انه خطب من دفتر نظرا وحفظ عنه انه قال اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مشركون فقال بعض الشعراء

وقام فى العيد لنا خطيبا * حرض الناس على الكفر

وذكر بعضهم انه كان يوقد فى الجامع العتيق كل ليلة ثمانية عشر ألف قنديل وان المطلق برسمه خاصة لوقود كل ليلة أحد عشر قنطارا زيتا طيبا وقال المقريزى أخبرنى شهاب الدين أحمد بن عبد الله الاوحدى أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات أخبرنا العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى أنه أدرك بجامع عمرو قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه

(من حسن المحاضرة فى أخبار القاهرة للسيوطى)

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة وأول من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد وخطب فيه وصلى بالناس الجمعة ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة وجعل أبوابها حيث هى اليوم صار جامع الحاكم داخل القاهرة وكان يعرف أولا بجامع الخطبة ويعرف اليوم بجامع الحاكم ويقال له الجامع الانور قال الامير مختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى فى تاريخ مصر وفيه يعنى شهر رمضان سنة ثمان وثلثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلى باب الفتوح من خارج وبدئ بالبناء فيه

وتحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون فى جامع القاهرة يعنى الجامع الازهر وخطب فيه العزيز بالله وقال فى حوادث سنة احدى وثمانين وثلثمائة لاربع خلون من شهر رمضان صلى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعة وخطب وكان فى مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف وعليه طيلسان وبيده القضيب وفى رجله الحذاء وركب لصلاة الجمعة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة الى جامعه ومعه ابنه منصور فجعلت المظلة على منصور وسار العزيز بغير مظلة وقال فى حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وأمر الحاكم بامر الله أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ فى بنيانه عند باب الفتوح فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار فابتدئ فى العمل فيه وفى صفر سنة احدى وأربعمائة زيد فى منارة جامع باب الفتوح وعمل لها أركان طول كل ركن مائة ذراع وفى سنة ثلاث وأربعمائة أمر الحاكم بالله بعمل تقدير ما يحتاج اليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار قال وتم بناء الجامع الجديد بباب الفتوح وعلق على سائر أبوابه ستور ديقية عملت له وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربع وكثير من قناديل فضة وفرش جميعه بالحصر التى عملت له ونصب فيه المنبر وتكامل فرشه وتعليقه وأذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة لمن بات فى الجامع الازهر أن يمضوا اليه فمضوا وصار الناس طول ليلتهم يمشون من كل واحد من الجامعين الى الآخر بغير مانع لهم ولا اعتراض من أحد من عسس القصر ولا أصحاب الطوف الى الصبح وصلى فيه الحاكم بامر الله بالناس صلاة الجمعة وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه وفى ذى القعدة سنة أربع وأربعمائة حبس الحاكم عدة قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى بباب الفتوح قال ابن عبد الظاهر وعلى باب الجامع الحاكمى مكتوب انه أمر بعمله الحاكم أبو على المنصور فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وعلى منبره مكتوب انه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمى المنشأ بظاهر باب الفتوح فى سنة ثلاث وأربعمائة ورأيت فى سيرة الحاكم وفى يوم الجمعة أقيمت الجمعة فى الجامع الذى كان الوزير أنشأه بباب الفتوح ورأيت فى سيرة الوزير المذكور فى يوم الاحد عاشر رمضان سنة تسع وسبعين وثلثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة خارج الطابية مما يلى باب الفتوح قال وكان هذا الجامع خارج القاهرة فجدد بعد ذلك باب الفتوح وعلى البدنة التى تجاور باب الفتوح وبعض البرج مكتوب ان ذلك بنى سنة ثلاث وأربعمائة فى زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش فيكون بينهما سبع وثمانون سنة قال والفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد الله ابن على بن شكر وأجرى الماء اليها وأزالها القاضى تاج الدين بن شكر وهو قاضى القضاة فى سنة ستين وستمائة والزيادة التى الى جانبه قيل انها بناء ولده الظاهر على ولم يكملها وكان قد حبس فيها الفرنج

فعملوا فيها كنائس هدمها الملك الناصر صلاح الدين وكان قد تغلب عليها وبنيت اصطبلات وبلغني أنها كانت في الايام المتقدمة قد جعلت اهراء للغلال فلما كان في الايام الصالحية ووزارة معين الدين حسن ابن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل ثبت عند الحاكم أنها من الجامع وأن بها محرابا فانتزعت وأخرج النخيل منها وبني فيها ما هو الآن في الايام المعزية على يد الركن الصيرفي ولم يسقف ثم جدد هذا الجامع في سنة ثلاث وسبعمائة وذلك انه لما كان يوم الخميس ثالث عشري ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة تزلزلت أرض مصر والقاهرة وأعمالها ورجف كل ما عليها واهتز وسمع للحيطان قعقعة وللسقوف قرقعة ومادت الارض بما عليها وخرجت عن مكانها وتخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الارض فهربوا من أماكنهم وخرجوا عن مساكنهم وبرزت النساء حاسرات وكثر الصراخ والعويل وانتشرت الخلائق فلم يقدر أحد على السكون والقرار لكثرة ما سقط من الحيطان وخر من السقوف والمآذن وغير ذلك من الابنية وفاض ماء النيل فيضا غير المعتاد وألقى ما كان عليه من المراكب التي بالساحل قدر رمية سهم وانحسر عنها فصارت على الارض بغير ماء واجتمع العالم في الصحراء خارج القاهرة وباتوا ظاهر باب البحر بحرمهم وأولادهم في الخيم وخلت المدينة وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل وقام الناس في الجوامع يبتهلون ويسألون الله سبحانه طول يوم الخميس وليلة الجمعة ويوم الجمعة فكان مما تهدم في هذه الزلزلة الجامع الحاكمي فانه سقط كثير من البدنات التي فيه وخرب أعالي المئذنتين وتشعثت سقوفه وجدرانه فانتدب لذلك الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ونزل اليه ومعه القضاة والامراء فكشفه بنفسه وأمر برم ما تهدم منه واعادة ما سقط من البدنات فاعيدت وفي كل بدنة منها طاقة وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا وجعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفي الصعيد وفي الاسكندرية تغل كل سنة شيأ كثيرا ورتب فيه دروسا أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الائمة الاربعة ودرسا لاقراء الحديث النبوي وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجوائي وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي وفي درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان وفي درس القراآت السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي وفي التصدير لافادة العلوم علاء الدين علي بن اسماعيل القونوي وفي مشيخة المعاد الجد عيسى بن الخشاب وعمل فيه خزانة كتب جليلة وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ومعلما يقرئ أيتام

المسلمين كتاب الله عز وجل وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ في كل سنة من ماء النيل ويسبل منه الماء في كل يوم ويستقى منه الناس يوم الجمعة وأجرى على جميع من قرره فيه من معاليم داره وهذه الاوقاف باقية الى اليوم الا أن أحوالها اختلت كما اختل غيرها فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار وجرى في بنائه بهذا الجامع أمر يتعجب منه وهو ما حدثني به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر أبو عبد الله محمد بن خضر غانم بن شكر المقرى بمكة في سنة سبع وثمانين وسبعمائة قال أخبرني من حضر عمارة الامير بيبرس للجامع الحاكمي عند سقوطه في سنة الزلزلة أنه لما شرع البناة في ترميم ما وهى من المئذنة التي هي من جهة باب الفتوح ظهر لهم صندوق في تضاعيف البنيان فاخرجه الموكل بالعمارة وفتحه فاذا فيه قطن ملفوف على كف انسان بزنده وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هي والكف طرية كأنها اقريبة عهد بالقطع ثم رأيت هذه الحكاية بخط مؤلف السيرة الناصرية موسى ابن محمد بن يحيى أحد مقدمي الحلقة ثم جدد هذا الجامع وباط جميعه في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في ولايته الثانية على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس في سنة ستين وسبعمائة ووقف قطعة أرض على الهرماس وأولاده وبنى زيادة في معلوم الامام بالجامع وعلى ما يحتاج اليه في زيت الوقود ومرمة في سقفه وجدرانه وجرى في عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدثني به الشيخ المعمر شمس الدين محمد بن علي امام الجامع الطيبرسي بشاطئ النيل قال أخبرني محمد بن عمر البوصيري قال حدثنا قطب الدين محمد الهرماس أنه رأى بالجامع الحاكمي حجرا ظهر من مكان قد سقط منقوشا عليه هذه الابيات الخمسة

ان الذي أسررت مكنون اسمه * وكتمته كيما أفوز بوصله
مال له جذر تساوى في الهجا * طرفاه يضرب بعضه في مثله
فيصير ذاك المال الا أنه * في النصف منه نصاب أحرف كله
واذا نطقت بربعه متكلما * من بعد أوله نطقت بكله
لا نقط فيه اذا تكامل عده * فيصير منقوطا بجملة شكله

قال وهذه الابيات لغز في الحجر المكرم وقال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش في كتاب العبر في أخبار من مضى وغبر وفي هذه السنة يعني سنة احدى وستين وسبعمائة صور الهرماس وهدمت داره التي بناها أمام الجامع الحاكمي وضرب ونفي هو وولده فلما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرون من ذي القعدة استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في وقف حصة طندتا وهي الارض التي كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمي فعين له خمسمائة وستين فدانا من طين طندتا وطلب الموقعين وأمرهم أن يكتبوا صورة وقفها ويحضروه ليشهدوا

عليه به وكان قد تقرر من شروطه فى أوقافه ما قيل انه رواية عن أبى حنيفة رحمة الله تعالى عليه من أن للواقف أن يشترط فى وقفه التغيير والزيادة والنقص وغير ذلك فاحضر الكركى الموقع عليه الكتاب مطويا فقرأ منه طرته وخطبته وأوله ثم طواه وأعاده اليه مطويا وقال اشهدوا بما فيه دون قراءة وتأمل فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه وقرروه مع الهرماس ولما اطلع السلطان على ذلك بعد نفى الهرماس طلب الكركى وسأله عن هذه الواقعة فأجاب بما قد ذكرنا والله أعلم بصحة ذلك غير أن المعلوم المقرر أن السلطان ما قصد الا مصالح الجامع ثم سأله ازدمر الخازندار هل وقفت حصة لطيفة على أولاد الهرماس فانه قد ذكر ذلك فقال نعم أنا وقفت عليهم جزأ يسيرا لم أعلم مقداره وأما التفصيل المذكور فى كتاب الوقف فلم أتحققه ولم أطلع عليه فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة فأما المفتون كابن عقيل وابن السبكى والبلقينى والبسطامى والهندى وابن شيخ الجبل والبغدادى ونحوهم فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة وبطلان التنفيذ وكان الحنفى حكم والبقية نفذوا وأما الحنفى فقال ان الوقف اذا صدر صحيحا على الاوضاع الشرعية فانه لا يبطل بما قاله الشاهد وهو جواب عن نفس الواقعة وأما الشافعى فكتب ما مضمونه ان الحنفى ان اقتضى مذهبه بطلان ما صححه أولا نفذ بطلانه وحاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة والمفتين أجابوا بالبطلان فطلب السلطان المفتين والقضاة فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعى وهو تاج الدين محمد بن اسحاق بن المناوى والقضاة الثلاثة الشافعى والحنفى والحنبلى وجدوا مرضى لم يمكنهم الحضور الى سرياقوس فان السلطان كان قد سرح اليها على العادة فى كل سنة فجمعهم السلطان فى برج من القصر الذى بميدان سرياقوس عشاء الآخرة وذكرلهم القضية وسألهم عن حكم الله تعالى فى الواقعة فأجاب الجميع بالبطلان غير المناوى فانه قال مذهب أبى حنيفة أن الشهادة الباطلة اذا اتصل بها الحكم صح ولزم فصرخت عليه المفتون شافعيهم وحنفيهم أما شافعيهم فانه قال ليس هذا مذهبك ولا مذهب الجمهور ولا هو الراجح فى الدليل والنظر وقال له ابن عقيل هذا مما ينقض به الحكم لو حكم به حاكم وادعى قيام الاجماع على ذلك وقال له سراج الدين البلقينى ليس هذا مذهب أبى حنيفة ومذهبه فى العقود والفسوخ ما ذكرت من أن حكم الحاكم يكون هو المعتمد فى التحليل والتحريم وأما الاوقاف ونحوها فحكم الحاكم فيها لا أثر له كمذهب الشافعى وادعوا أن الاجماع قائم على ذلك وقاموا على المناوى فى ذلك قومة عظيمة فقال نحن نحكم بالظاهر فقالوا له ما لم يظهر الباطن بخلافه فقال قال النبى صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر قالوا هذا الحديث كذب على النبى صلى الله عليه وسلم وانما الحديث الصحيح انما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض الحديث قال المناوى الاحكام ما هى بالفتاوى قالوا له فماذا تكون أفى الوجود حكم شرعى

بغير فتوى من الله ورسوله وكان قد قال في مجلس ابن الدريهم القائم على نفيس اليهودي المدعو برأس الجالوت بين اليهود لا يلتفت لقول المفتين فقيل له في هذا المجلس ها أنت قد قلت مرتين ان المفتين لا يعتبر قولهم وان الفتاوى لا يعتد بها وقد أخطأت في ذلك أشد الخطأ وأبأت عن غاية الجهل فان منصب الفتوى أول من قام به رب العالمين اذ قال في كتابه المبين يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة وقال يوسف عليه السلام قضي الامر الذي فيه تستفتيان وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها قد أفتاني الله ربي فيما استفتيته وكل حكم جاء على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوى والقائم به مفت فكيف تقول لا يلتفت الى الفتوى أو الى المفتين فقال سراج الدين الهندي وغيره هذا كفر ومذهب أبي حنيفة أن من استخف بالفتوى أو المفتين فهو كافر فاستدرك نفسه بعد ذلك وقال لم أرد الا أن الفتوى اذا خالفت المذهب فهي باطلة قالوا له وأخطأت في ذلك لان الفتوى قد تخالف المذهب المعين ولا تخالف الحق في نفس الامر قال فأردت بالفتوى التي تخالف الحق قالوا فاطلقت في موضع التقييد وذلك خطأ فقال السلطان حينئذ فاذا قدر هذا وادعيت أن الفتوى لا أثر لها فتبطل المفتين والفتوى من الوجود فتلكأ وحار وقال كيف أعمل في هذا فتبين لبعض الحاضرين انه استشكل المسألة ولم يتبين له وجهها فقال لا شك أن مولانا السلطان لم ينكر صدور الوقف وانما أنكر المصارف وأن تكون الجهة التي عينها هي هرماس وشهوده وقضاته وللسلطان أن يحكم فيها بعلمه ويبطل ما قرروه من عند أنفسهم قال كيف يحكم لنفسه قيل له ليس هذا حكما لنفسه لانه مقر بأصل الوقف وهو للمستحقين ليس له فيه شئ وانما بطل وصف الوقف وهو المصرف الذي قرر على غير جهة الوقف وله أن يوقع الشهادة على نفسه بحكم أن مصرف هذا الوقف الجهة الفلانية دون الفلانية ولم يزالوا يذكرون له أوجها تبين بطلان الوقف اما بأصله أو بوصفه الى أن قال يبطل بوصفه دون أصله وأذعن لذلك بعد اتعاب من العلماء وازعاج شديد من السلطان في بيان وجوه ذكروها تبين وجه الحق وأنه انما وقفه على مصالح الجامع المذكور وهذا مما لا يشك فيه عاقل ولا يرتاب فالتفت بعد ذلك وقال للحاضرين كيف نعمل في ابطاله فقالوا بما قررناه من اشهاد السلطان على نفسه بتفصيل صحيح وأنه لم يزل كذلك منه صدر من الوقف الى هذا الحد وغير ذلك من الوجوه فجعل يوهم السلطان أن الشهود الذين شهدوا في هذا الوقف متى بطل هذا الوقف ثبت عليهم التساهل وجرحوا بذلك وقدح ذلك في عدالتهم ومتى جرحوا الآن لزم بطلان شهادتهم في الاوقاف المتقدمة على هذا التاريخ وخيل بذلك للسلطان حتى ذكر له اجماع المسلمين على أن جرح الشاهد لا ينعطف على ما مضى من شهاداته السالفة ولو كفر والعياذ بالله وهذا مما لا خلاف فيه ثم استقر رأيه على أن يبطله بشاهدين يشهدان أن السلطان

لما صدر منه هذا الوقف كان قد اشترط لنفسه التغيير والتبديل والزيادة والنقص وقام على ذلك قال مؤلفه رحمه الله أنظر تثبت القضاة وقايس بين هذه الواقعة وما كان من تثبت القاضي تاج الدين المناوي وهو يومئذ خليفة الحكم ومصادمته الجبال وبين ما استقف عليه من التساهل والتناقض في خبر أوقاف مدرسة جمال الدين يوسف الاستادار وميز بعقلك فرق ما بين القضيتين وهذه الارض التي ذكرت هي الآن بيد أولاد الهرماس بحكم الكتاب الذي حاول السلطان نقضه فلم يوافق المناوي والجامع الآن متهدم وسقوفه كلها ما من زمن الا ويسقط منها الشيء بعد الشيء فلا يعاد وكانت ميضأة هذا الجامع صغيرة بجوار ميضأته الآن فيما بينها وبين باب الجامع وموضعها الآن مخزن تعلوه طبقة عمرها شخص من الباعة يعرف بابن كرسون المراحلي وهذه الميضأة الموجودة الآن أحدثت وأنشأ الفسقية التي فيها ابن كرسون في أعوام بضع وثمانين وستمائة وبيض مئذنتي الجامع واستجد المأذنة التي بأعلى الباب المجاور للمنبر رجل من الباعة وكملت في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة وخرق سقف الجامع حتى صار المؤذنون ينزلون من السطح الى الدكة التي يكبرون فوقها وراء الامام (هيئة صلاة الجمعة في أيام الخلفاء الفاطميين) قال المسبحي وفي يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز بالله الى جامع القاهرة بالمظلة المذهبة وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش وبيده القضيب وعليه الطيلسان والسيف وخطب وصلى صلاة الجمعة وانصرف فأخذ قاع المتظلمين بيده وقرأ منها عدة في الطريق وكان يوما عظيما ذكرته الشعراء قال ابن الطوير اذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح في أول جمعة فاذا كانت الثانية ركب الخليفة الى الجامع الانور الكبير في هيئة المواسم بالمظلة وما تقدم ذكره من الآلات وباسه فيه ثياب الحرير البيض بوقيرة الصلاة من الذهب والمنديل والطيلسان المفور الشعري فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدمه في أوائل النهار صاحب بيت المال وهو المقدم ذكره في الاستاذين وبين يديه الفرش المختصة بالخليفة اذا صارا اليه في هذا اليوم وهو محمول بأيدي الفراشين المميزين وهو ملفوف في العراضي الديبقية فيفرش في المحراب ثلاث طراحات اما سامان أو ديبقي أبيض أحسن ما يكون من صنفيهما كل منهما منقوش بالحمرة فتجعل الطراحات متطابقات ويعلق ستران يمنة ويسرة وفي الستر الايمن كتابة مرقومة بالحرير الاحمر واضحة منقوطة أولها البسملة والفاتحة وسورة الجمعة وفي الستر الايسر مثل ذلك وسورة اذا جاءك المنافقون قد أسبلا وفرشا في التعليق بجانبي المحراب لاصقين بجسمه ثم يصعد قاضي القضاة المنبر وفي يده مدخنة لطيفة خيزران يحضرها اليه صاحب بيت المال فيها جمرات ويجعل فيها قدر مثلث لا يتم مثل الاهتمال فيبخر الذروة التي عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرر ذلك ثلاث دفعات فيأتي الخليفة في هيئة

موقرة من الطبل والبوق وحوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القراء وهم قراء الحضرة من الجانبين يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسى على ما تقدم طول طريقه الى قاعة الخطابة من الجامع ثم تحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار العساكر ومن داخلها الى آخرها صبيان الخاص وغيرهم ممن يجرى مجراهم ومن داخلها من باب خروجه الى المنبر واحد فواحد فيجلس فى القاعة وان احتاج الى تجديد وضوء فعل والوزير فى مكان آخر فاذا أذن بالجمعة دخل اليه قاضى القضاة فقال له السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله فيخرج ماشيا وحواليه الاستاذون المحنكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الاسلحة من صبيان الخاص وهم أمراء وعليهم هذا الاسم فيصعد المنبر الى أن يصل الى الذروة تحت تلك القبة المخرة فاذا استوى جالسا والوزير على باب المنبر ووجهه اليه فيشير اليه بالصعود فيصعد الى أن يصل اليه فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ثم يزر عليه تلك القبة لانها كالهودج ثم ينزل مستقبلا فيقف ضابطا لباب المنبر فان لم يكن ثم وزير صاحب سيف زر عليه قاضى القضاة كذلك ووقف صاحب الباب ضابطا للمنبر فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر اليه من ديوان الانشاء يقرأ فيها آية من القرآن الكريم ولقد سمعته مرة فى خطابته بالجامع الازهر وقد قرأ فى خطبة رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى الآية ثم يصلى على أبيه وجده يعنى بهما محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ويعظ الناس وعظا بليغا قليل اللفظ وتشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل الى نفسه فيقول وأنا أسمعه اللهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ويتوسل بدعوات فخيمة تليق بمثله ويدعو للوزير ان كان وللجيوش بالنصر والتأليف وللعساكر بالظفر وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ثم يختم بقوله اذكروا الله يذكركم فيطلع اليه من زر عليه ويفك ذلك التزرير وينزل القهقرى وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لاعادة الخطباء فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب وحده اماما ويقف الوزير وقاضى القضاة صفا ومن ورائهما الاستاذون المحنكون والامراء المطوقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والاقلام والمؤذنون وقوف وظهورهم الى المقصورة لحفظه فاذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى فاسمع القاضى المؤذنين وأسمع المؤذنون الناس هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الايمن فى الركعة الاولى وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الايسر وذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج فاذا فرغ خرج الناس وركبوا أولا فأولا وعاد طبلا القصر والوزير وراءه وضربت البوقات والطبول فى العود

فاذا أتت الجمعة الثانية ركب الى الجامع الازهر من القشاشين على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه فاذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه الى مصر للخطابة فى جامعها فيزين له القصر أهل القاهرة الى جامع ابن طولون ويزين له أهل مصر من جامع ابن طولون الى الجامع بمصر يرتب ذلك والى مصر كل أهل معيشة فى مكان فيظهر المختار من الآلات والستور المثمنات ويقيمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهن والوالى مار وعائد بينهم وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم فيركب يوم الجمعة المذكور شاقا الذلك كله على الشارع الاعظم الى مسجد عبد الله الخراب اليوم الى دار الاشماط الى الجامع بمصر فيدخل اليه من المعونة ومنها باب متصل بقاعة الخطيب بالزى الذى تقدم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما فاذا قضى الصلاة عاد الى القاهرة من طريقه بعينها شاقا بالزينة الى أن يصل الى القصر ويعطى أرباب المساجد التى يمر عليها كل واحد دينارا وقال ابن المأمون ووصل من الطراز الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجميعه برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة وبرسم الجامع الازهر للجمعة الاولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها وطيلسانها بياض وبرسم الجامع الانور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى وما هو برسم أخى الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة وبرسم أربع جهات للخليفة أربع حال مذهبات وبرسم الوزير للغرة خلعة مذهبة مكملة موكبية وبرسم الجمعيتين بدلتان حريريتان ولم يكن لغير الخليفة وأخيه والوزير فى ذلك شئ فتذكره (من المقريزى)

جامع ابن طولون

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر قال ابن عبد الظاهر وهو مكان مشهور باجابة الدعاء وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات وابتدأ فى بناء هذا الجامع الامير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بناء القطائع فى سنة ثلاث وستين ومائتين قال جامع السيرة الطولونية كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى المسجد القديم الملاصق للشرطة فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون ومنه بنى العين فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود فقيل له ما تجدها أو تنفذ الى الكنائس فى الارياف والضياع الخراب فتحمل ذلك فأنكر ذلك ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر فى أمره وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين وكان قد غضب عليه وضربه ورماه فى المطبق الخبر فكتب اليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه فقال له ويحك ما تقول فى بناء الجامع فقال أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة

فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصورته فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار فقال له أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع النصراني يده في البناء في الموضع الذي هو فيه وهو جبل يشكر فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبني الى أن أفرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء وصلى فيه بكار بن قتيبة القاضي وعمل الربيع بن سليمان بابا فيه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة فلما كان أول جمعة صلاها فيه أحمد بن طولون وفرغت الصلاة جلس محمد بن الربيع خارج المقصورة وقام المستملي وفتح باب المقصورة وجلس أحمد بن طولون ولم ينصرف والغلمان قيام وسائر الحجاب حتى فرغ المجلس فلما فرغ المجلس خرج اليه غلام بكيس فيه ألف دينار وقال يقول لك الامير نفعك الله بما علمك وهذا لابي طاهر يعني ابنه وتصدق أحمد ابن طولون بصدقات عظيمة فيه وعمل طعاما عظيما للفقراء والمساكين وكان يوما عظيما حسنا وراح أحمد بن طولون ونزل في الدار التي عملها فيه للامارة وقد فرشت وعلقت وحملت اليها الآلات والاواني وصناديق الاشربة وماشاكلها فنزل بها أحمد وجدد طهوره وغير ثيابه وخرج من بابها الى المقصورة فركع وسجد شكرا لله تعالى على ما أعانه عليه من ذلك ويسره له فلما أراد الانصراف خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوارة وخرج الى باب الريح فصعد النصراني الذي بنى الجامع ووقف الى جانب المركب النحاس وصاح يا أحمد بن طولون يا أمير الامان عبدك يريد الجائزة ويسأل الامان أن لا يجرى عليه مثل ما جرى في المرة الاولى فقال له أحمد بن طولون انزل فقد أمنك الله ولك الجائزة فنزل وخلع عليه وأمر له بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات وراح أحمد بن طولون في يوم الجمعة الى الجامع فلما رقى الخطيب المنبر وخطب وهو أبو يعقوب البلخي دعا للمعتمد ولولده ونسي أن يدعو لاحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب سهوه وهو على مرقاة المنبر فعاد وقال الحمد لله وصلى الله على محمد ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما اللهم وأصلح الامير أبا العباس أحمد ابن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد في الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد الى نسيم أن اجعلها ذنابير ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله تعالى على سلامته وهنأه الناس بالسلامة ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون في الجامع عند العشاء وكان في شهر رمضان فقال متى يشترى هؤلاء الضعفاء افطارا لعيالهم وأولادهم اصرفوهم العصر فصارت سنة الى اليوم بمصر فلما فرغ شهر رمضان قيل له قد انقضى شهر رمضان فيعودون الى رسمهم فقال قد بلغني دعاؤهم

وقد تبركت به وليس هذا مما يوفر العمل عليه او فرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين وتقرب الناس الى ابن طولون بالصلاة فيه وألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوارة الجامع ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم ورقاق وعدة غلمان وبلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ويقال ان أحمد بن طولون رأى فى منامه كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع الا الجامع فانه لم يقع عليه من النور شئ فتألم فقال والله ما بنيته الا لله خالصا ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه فقال له معبر حاذق هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله لان الله تعالى قال فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا فكل شئ يقع عليه جلال الله عز وجل لا يثبت وقد صح تعبير هذه الرؤيا فان جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب وبقى الجامع عامرا ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن قال القضاعى رحمه الله وذكر أن السبب فى بنائه أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فامر بانشاء المسجد الجامع بجبل يشكر ابن جديلة من لخم فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين وقيل ان أحمد بن طولون قال أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى فقال له بينى بالجير والرماد والآجر الاحمر القوى النار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار فبناه هذا البناء وعمل فى مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والادوية وعليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة وبناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة وعلق فيها سلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة وفرشه بالحصر العبدانية والسمانية

(حديث الكنز) قال جامع السيرة لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من رد الخراج بمصر اليه وزاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية يرغب بنفسه عن المعادن ومرافقها فامر بتركها وكتب باسقاطها فى سائر الاعمال ومنع المتقبلين من الفسخ على المزارعين وحظر الارتفاق على العمال وكان قبل اسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دسومة فى ذلك وهو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج فقال ان أمنى الامير تكلمت بما عندى فقال له قد أمنك الله عز وجل فقال أيها الامير ان الدنيا والآخرة ضرتان والحازم من لم يخلط احداهما مع الاخرى والمفرط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه وأفعال الامير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كان شق بالنصر دائما طول العمر لما كان شئ عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات

وترك الانسان ما قد أمكنه وصار في يده تضييع ولعل الذي حمله نفسه يكون معاقبا لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير أيده الله بما قد عزم على اسقاطه من المرافق في السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقبلين في هذه السنة لانها سنة ظلم توجب الفسخ زاد مال البلد ويوفر توفيرا عظيما يضاف الى مال المرافق فيضبط به الامير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام أمور الرئاسة والسياسة وكل ما عدل الامير أيده الله اليه من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيي والامير أيده الله على ما عساه يراه فقال له ننظر في هذا ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامه رجلا من اخوانه الزهاد بطرسوس وهو يقول له ليس ما أشار به عليك من استشرته في أمر الارتفاق والفسخ برأي تحمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيأ لله عز وجل عوضه الله عنه فأمض ما كنت عزمت عليه فلما أصبح أنفذ الكتب الى سائر الاعمال بذلك وتقدم به في سائر الدواوين بامضائه ودعا بابن دسومة فعرفه بذلك فقال له قد أشار عليك رجلان الواحد في اليقظة والآخر ميت في النوم وأنت الى الحي أقرب وبضمانه أوثق فقال دعنا من هذا فلست أقبل منك وركب في غد ذلك اليوم الى نحو الصعيد فلما أمعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس بعض غلمانه وهو رمل فسقط الغلام في الرمل فاذا بفتق ففتح فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار وهو الكنز الذي شاع خبره وكتب به الى العراق أحمد بن طولون يخبر المعتمد به ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فبنى منه المارستان ثم أصيب بعده في الجبل مال عظيم فبنى منه الجامع ووقف جميع ما بقي من المال في الصدقات وكانت صدقاته معروفة لا تحصى كثرة ولما انصرف من الصحراء وحمل المال أحضر ابن دسومة وأراه المال وقال له بئس الصاحب والمستشار أنت هذا أول بركة مشورتك الميت في النوم ولولا أني أمتنك لضربت عنقك وتغير عليه وسقط محله عنده ورفع اليه بعد ذلك انه قد أجحف بالناس وألزمهم أشياء ضجوا منها فقبض عليه وأخذ ماله وحبسه فمات في حبسه وكان ابن دسومة واسع الحيلة بخيل الكف زاهدا في شكر الشاكرين لا يهش الى شيء من أعمال البر وكان أحمد بن طولون من أهل القرآن اذا جرت منه اساءة استغفر وتضرع وقال ابن عبد الظاهر سمعت غير واحد يقول انه لما فرغ أحمد ابن طولون من بناء هذا الجامع أسر الناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب فقال رجل محرابه صغير وقال آخر ما فيه عمود وقال آخر ليست له ميضأة فجمع الناس وقال أما المحراب فاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لي فاصبحت فرأيت النمل قد أطاف بالمكان الذي خطه لي وأما العمد فاني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز وما كنت لاشوبه بغيره

وهذه العمد اما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها وأما البيضاء فاني نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها وقيل انه لما فرغ من بنائه رأى في منامه كأن نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله فلما أصبح قص رؤياه فقيل له أبشر بقبول الجامع لان النار كانت في الزمان الماضي اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته وهذه قصة قابيل وهابيل قال ورأيت من يقول انه عمل به منطقة دائرة بجميعه من عنبر ولم أر مصنفا ذكره الا أنه مستفاض من الافواه والنقلة وسمعت من يقول انه عمر ما حوله حتى كان خلفه مسطبة ذراع في ذراع أجرتها في كل يوم اثنا عشر درهما في بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه والظهر لخباز والعصر لشيخ يبيع الحمص والفول وقيل عن أحمد بن طولون انه كان لا يعبث بشئ قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته فطلب المعمار على الجامع وقال تبنى المنارة التي للتأذين هكذا فبنيت على تلك الصورة والعامة يقولون ان العشاري الذي على المنارة المذكورة يدور مع الشمس وليس صحيحا وانما يدور مع دوران الرياح وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان ثم أبطلها وقال المسبحي ان الحاكم أنزل الى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا وفي سنة ست وسبعين وثلثمائة في ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الاولى احترقت الفوارة التي كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شئ وكانت في وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها وهي مذهبة على عشر عمد رخام وستة عشر عمودا رخاما في جوانبها مفروشة كلها بالرخام وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع في وسطها فوارة تفور بالماء وفي وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها وفي أخرى على سلها وفي السطح علامات الزوال والسطح بدرابزين ساج فاحترق جميع هذا في ساعة واحدة وفي المحرم سنة خمس وثمانين وثلثمائة أمر العزيز بالله ابن المعز ببناء فوارة عوضا عن التي احترقت فعمل ذلك على يد راشد الحنفي وتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء وماتت أم العزيز في سلخ ذي القعدة من السنة والله أعلم

(تجديد الجامع) وكان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مضر في زمان المستنصر وخربت القطائع والعسكر عدم الساكن هنالك وصار ما حول الجامع خرابا وتوالت الايام على ذلك وتشعث الجامع وخرب أكثره وصار أخيرا تنزل فيه المغاربة بأباعرها ومتاعها عند ما تقرب مصر أيام الحج فهيأ الله جل جلاله لعمارة هذا الجامع أن كان بين الملك الاشرف خليل بن قلاوون وبين الامير بيدر أمور موحشة تزايدت وتأكدت الى أن جمع بيدر من يثق به وقتل الاشرف بناحية تروجة في سنة ثلاث وتسعين وستمائة وكان ممن وافق الامير بيدرا على قتل الاشرف

الامير حسام الدين لاجين المنصوري والامير قرانسقر فلما قتل بيدرا في محاربة مماليك الاشرف له فر لاجين وقرانسقر من المعركة فاختفى لاجين بالجامع الطولوني وقرانسقر في داره بالقاهرة وصار لاجين يتردد بمفرده من غير أحد معه في الجامع وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه وأعطى الله عهدا ان سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من الارض أن يجدد عمارة هذا الجامع ويجعل له ما يقوم به ثم انه خرج منه في سفينة الى القرافة فأقام بها مدة وأرسل قرانسقر فتحيل في لحاقه به وعملا أعمالا الى ان اجتمعا بالامير زين الدين كتبغا المنصوري وهو اذ ذاك نائب السلطنة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون والقائم بأمور الدولة كلها فأحضرهما الى مجلس السلطان بقلعة الجبل بعد أن أتقن أمرهما مع الامراء ومماليك السلطان فخلع عليهما وصار كل منهما الى داره وهو آمن فلم تطل أيام الملك الناصر في هذه الولاية حتى خلعه الامير كتبغا وجلس على تخت الملك وتلقب بالملك العادل فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر وجرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا وهم بطريق الشام ففر كتبغا الى دمشق واستولى لاجين على دست المملكة وسار الى مصر وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل وتلقب بالملك المنصور في المحرم من سنة ست وتسعين وستمائة فأقام قرانسقر في نيابة السلطنة بديار مصر وأخرج الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل الى كرك الشوبك فجعله في قلعتها وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه وجعله نائب حماه فأقام بها مدة سنين بعد سلطنة مصر والشام وخلع على الامير علم الدين سنجر الدواداري وأقامه في نيابة دار العدل وجعل اليه شراء الاوقاف على الجامع الطولوني وصرف اليه كل ما يحتاج اليه في العمارة وأكد عليه في أن لا يسخر فيه فاعلا ولا صانعا وأن لا يقيم مستحثا للصناع ولا يشتري لعمارته شيأ مما يحتاج اليه من سائر الاصناف الا بالقيمة التامة وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله وأشهد عليه بوكالته فابتاع منية أندونة من أراضي الجيزة وعرفت هذه القرية بأندونة كاتب بمصر كان نصرانيا في زمن أحمد بن طولون وممن نكبه وأخذ منه خمسين ألف دينار واشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون مما كان في القديم عامرا ثم خرب وحاكرها وعمر الجامع وأزال كل ما كان فيه من تخريب وبلطه وبيضه ورتب فيه دروسا لالقاء الفقه على المذاهب الاربعة التي عمل أهل مصر عليها الآن ودروسا يلقى فيها تفسير القرآن الكريم ودرسا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ودرسا للطب وقرر للخطيب معلوما وجعل له اماما راتبا ومؤذنين وفراشين وقومة وعمل بجواره مكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مستغلاته عشرين ألف دينار فلما شاء الله سبحانه أن يهلك لاجين زين له سوء عمله عزل الامير قرانسقر من نيابة السلطنة فعزله وولى مملوكه منكوتمر

وكان عسوفا عجولا حادا ولاجين مع ذلك يركن اليه ويعوّل فى جميع أموره عليه ولا يخالف قوله ولا ينقض فعله فشرع منكوتمر فى تأخير أمراء الدولة من الصالحية والمنصورية وأعجل اظهار التهجم لهم والاعلان بما يريده من القبض عليهم واقامة أمراء غيرهم فتوحشت القلوب منه وتمالأت على بغضه ومشى القوم بعضهم الى بعض وكاتبوا الى اخوانهم من أهل البلاد الشامية حتى تم لهم ما يريدون فواعد جماعة منهم اخوانهم على قتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر فاهوالا أن صلى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وستمائة واذا بالامير كرجى وكان ممن هو قائم بين يديه تقدم ليصلح الشمعة فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده وانقض عليه البقية ممن واعدوهم بالسيوف والخناجر فقطعوه قطعا وهو يقول الله الله وخرجوا من فورهم الى باب القلعة من قلعة الجبل فاذا بالامير طغيج قد جاس فى انتظارهم ومعه عدة من الامراء وكانوا اذذاك يبيتون بالقلعة دائما فاهروا باحضار منكوتمر من دار النيابة بالقلعة وقتلوه بعد مضى نصف ساعة من قتل استاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى رحمه الله فلقد كان مشكور السيرة وفى سنة سبع وستين وسبعمائة جدد الامير يلبغا العمرى الخاصكى درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما وأردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية الى مذهب الحنفية وأول من ولى نظره بعد تجديده الامير علم الدين سنجر الجاولى وهو اذذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين ثم ولى نظره قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ثم من بعده الامير مكين فى أيام الناصر محمد بن قلاوون فجدد فى أوقافه طاحونا وفرنا وحوانيت فلما مات وليه قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ثم ولاه الناصر للقاضى كريم الدين الكبير فجدد فيه مأذنتين فلما نكبه السلطان عاد نظره الى قاضى القضاة الشافعى وما برح الى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فولاه للامير صرغتمش وتوفر فى مدة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة وقبض عليه وهى حاصلة فباشره قاضى القضاة الى أيام الاشرف شعبان بن حسين فقوض نظره الى الامير الجاى اليوسفى الى أن غرق فتحدث فيه قاضى القضاة الشافعى الى أن فوض السلطان الملك الظاهر برقوق نظره الى الامير قطلوبغا الصفوى فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وكان الامير منطاش مدة تحكمه فى الدولة فوضه الى المذكور فى أواخر شوال سنة احدى وتسعين وسبعمائة ثم عاد نظره الى القضاة بعد الصفوى وهو بايديهم الى اليوم وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة جدد الرواق البحرى الملاصق للأذنة الحاج عبيد بن محمد بن عبد الهادى الهويدى البازدار مقدم الدولة وجدد ميضأة بجانب الميضأة القديمة وكان عبيد هذا بازدارا ثم ترقى حتى صار مقدم الدولة فى شهر ربيع الاول سنة

اثنتين وتسعين وسبعمائة ثم ترك زى المقدمين وتزيا بزى الامراء وحاز نعمة جليلة وسعادة طائلة حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة المقريزى

(ذكر ملوك الروم المتنصرة وهم ملوك القسطنطينيه ولمع من أخبارهم)

(ملك قسطنطين) بعد أن أهلك فليبطاليس بروميه وهو يعبد الاوثان وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن روميه الى بوزنطيا وهى مدينة القسطنطينيه فبناها وسماها باسمه الى وقتنا هذا وكان له فى بنائها خبر طريف مع بعض ملوك برجان نخوف داخله من بعض ملوك ساسان وكان خروجه من روميه ودخوله فى دين النصرانية لسنة خلت من ملكه واتسع سنين من ملكه خرجت أمه هلانى الى أرض الشام فبنت الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح عندهم فلما صارت اليها حلتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيدا وهو عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من أيلول وفيه تفتح الترع والخلجان ببلاد مصر على حسب ما نورده عند ذكرنا لاخبار مصر من هذا الكتاب وهى التى بنت كنيسة حمص على أربعة أركان وذلك من عجائب بنيان العالم واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام وصرفت ذلك الى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم فانها بنتها هذه الملكة هلانى أم قسطنطين وقد جعل اسمها مع الصليب فى كل كنيسة لها وليست الروم فى أحرفهم هاء وأحرف هلانى خمسة أحرف فالاول إمالة وهو بحساب الجمل خمسة والثانى وهو اللام ثلاثون والثالث إمالة أيضا وهى خمسة والرابع النون وهى خمسون والخامس ياء وهو فى حساب الجمل عشرة فذلك مائة اختصارا على ما ذكرنا هذه هى صورة الحروف التى هى مائة بالروميه ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلانى اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا بمدينة نيقيه بارض الروم فاقاموا دين النصرانيه وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة الروميه السندوسات واحدها سندوس فالاول بنيقيه على ما ذكرنا من العدد وكان الاجتماع فيه على اريوس وهذا اتفاق من سائر دين النصرانيه من الملكية والمشارقة وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية واتفاق من اليعاقبة على هذا السندوس أيضا والسندوس الثانى بالقسطنطينيه على مقدنوس وعدة المجتمعين فيه من الاساقفة مائة وخمسون رجلا والسندوس الثالث بافسوس وعددهم مائتا رجل والسندوس الرابع مائة وستة وأربعون رجلا والسندوس الخامس بالقسطنطينيه وعددهم مائة وتسعة وثمانون رجلا وسنذكر بعد هذا الموضع فى ترتيب ملوك الروم هذه السندوسات وغلبة دين النصرانية وزوال عبادة التماثيل والصور وكان السبب فى دخول قسطنطين بن هلانى

فى دين النصرانيه والرغبة فيه أن قسطنطين خرج فى بعض حروب برجان وغيرهم من الامم وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ثم كانت عليه فى بعض الايام فقتل من أصحابه خلق كثير فخاف البوار فرأى فى النوم كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذاب وأعلام على هذه الرماح رؤسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب وقيل له خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوك تنصر فجعل يحارب بها فى النوم فرأى عدوه منهزما وقد نصر عليه وولاه الدبر فاستيقظ من رقاده ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرناه ودفعها فى عسكره وزحف الى عدوه فولوا وأخذهم السيف فرجع الى مدينة نيقيه وسأل أهل الخبرة عن تلك الصلبان وهل يعرفون فى ذلك شيأ من الآراء والنحل فقيل له ان بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قبل النصرانية فبعث الى الشام والى بيت المقدس فشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فأووه وهو بنيقيه فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانية فهذا هو السندوس الاول وهو الاجتماع على ما ذكرنا وقد قيل ان أم قسطنطين هلانى تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا وكان ملك قسطنطين الى أن هلك احدى وثلاثين سنة وفى وجه آخر من التاريخ انه ملك خمسا وعشرين وقد أتينا على أخباره وحروبه وخروجه مرتادا لموضع القسطنطينية وورود الى هذا الخليج الآخذ من بحر مانطش ونيطش فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط وأن خليج القسطنطينيه يأخذ من هذا البحر ويجرى الماء فيه جريا ويصب الى بحر الشام ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلا وقيل أقل من ذلك وعرضه فى الموضع الذى من بحر مانطش نحو ثلاثمائة وخمسين ميلا وهنالك عمائر ومدينة للروم تدعى سباه تمنع ما يرد فى هذا البحر من مراكب الروم وغيرها ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية فيصير عرضه وهو موضع العبور من الجانب الشرقى الى الموضع الغربى الذى فيه القسطنطينية نحوا من أربعة أميال وعليه العمائر وينتهى فى ضيقه الى الموضع المعروف بالانداس وهنالك جبال وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأتته مراكب المسلمين فى فم هذا الخليج مما يلى بحر الشام ومنتهى مصبه مضيق وهنالك برج يمنع من فيه ما يرد من مراكب المسلمين فى الوقت الذى للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الامر من قبل ومن بعد وأخبرنى أبو عمير عدى بن حاتم بن عبد الباقى الازدى وهو شيخ الثغور الشامية قديما الى وقتنا هذا وهو من أهل التحصيل أنه لما عبر الى القسطنطينيه فى هذا الخليج حين دخل لاقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وبرده مما يلى بحر مانطش ونيطش وربما تبين فى الماء الجرى مما يلى بحر الشام فيجده فاترا وهذا يدل على اتصال ماء البحرين وانه قد دخل

فى بحر الروم الى هذا الخليج أيضا وتمعت غيرواحد من أهل التحصيل ممن غزا غزاة ساوقية مع غلام ازارقه وقد كانوا دخلوا الى خليج القسطنطينيه وساروا فيه مسافة بعيدة انهم وجدوا الماء فى هذا الخليج يقل فى أوقات من الليل والنهار ويكثر كالجذر والمد وعليه العمائر والمدن فلما حسوا بنقصان الماء بادروا بالخروج منه الى البحر الرومى وان فى مدخله من بحر الروم مدينة تقرب من فم الخليج والخليج يطيف بالقسطنطينيه من جهتين مما يلى الشرق ومما يلى الشمال وفى الجانب الجنوبى البر وفيه باب الذهب مطلى على صفائح النحاس وأعلى موضع من سورها نحو من ثلاثين ذراعا وقد ذكر أنه أقل من ذلك وأن أقصر موضع فيه عشرة أذرع ولها أبواب كثيرة مما يلى البر والبحر وحولها كنائس كثيرة وقد قيل ان لها ثلاثين بابا ومنهم من زعم أن عليها مائة باب صغارا وكبارا وهو بلد عفن مختلف المهاب مرطب للابدان لكونه بين ماوصفنا لهذه البحار (قال المسعودى) ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونان وبرهة من مملكة الروم تعظم العلماء وتشرف الحكماء وكانت لهم الآراء فى الطبيعيات والجسم والعقل والنفس والتعاليم الاربعة أعنى الارثماطيقى وهو علم الاعداد والجومطريقى وهو علم المساحة والهندسه والاسترنوميا وهو علم النجوم والموسيقى وهو علم تأليف اللحون ولم تزل العلوم قائمة السوق مشرفة الاقطار قوية المعالم شديدة المقادم سامية البناء الى أن تظاهرت ديانة النصرانية فى الروم فعفوا معالم الحكمة وأزالوا رسمها وعفوا سبلها وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته وكان من شريف ماتركته المعرفة بعلم الموسيقى لانه غذاء للنفس ومطرب لها ولهيها اتبتهج عند سماعه وتحن الى تأليف أوضاعه وقد نطقت الحكمة بشرفه ونبهت على نفاسة محله فقال الاسكندر من فهم الالحان استغنى عن سائر اللذات وقالت الفلاسفة ان النغم فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليس فى قدرته فاخرجتها النفس ألحانا فلما أظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت اليها ورتبت الحكماء الاوتار الاربعة بازاء الطبائع الاربعة فجعلوا الزير بازاء المرة الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم والبم بازاء السوداء وقد أشبعنا القول فى الموسيقى وأصحاب الملاهى والايقاع وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسب النغم وما استعملته كل أمة من الامم من أصناف الملاهى من اليونانيين والروم والسريانيين والقبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الامم وذكرنا مناسبة النغم للاوتار ومزاجة النفس والالحان وكيفية تولد الطرب والسرور وذهاب الغم وزوال الحزن وعلل ذلك الطبيعية والنفسية وما أحاط بذلك من جميع الوجوه فى كتابنا المترجم بكتاب الزاف وأتينا على ظريف أخبارهم وأنواع لهوهم وتلاهيهم فى كتاب أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط فاغنى ذلك عن اعادته ههنا اذ هذا الكتاب فى غاية الايجاز وان سنح لنا سانح

ذكرنا لمعا من هذه الجوامع فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وان تعذر ذلك فقد قدمنا التنبيه على ما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح (ثم ملك الروم) بعد قسطنطين بن هلانى الملك المتنصر قسطنطين بن قسطنطين وهو ابن الملك الماضى وكان ملكه أربعا وعشرين سنة وبنى كنائس كثيرة وشيد دين النصرانية (ثم تملك) ابن أخى قسطنطين الاول بوليانس فرفض دين النصرانية ورجع الى عبادة الاوثان وهو بوليانس المعروف بالحنق وأهل دين النصرانية لبغضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه بليانس البرباط وغزا العراق فى ملك سابور ابن أزدشير بن بابك فاتاه سهم غرب فذبحه وقد كان سار الى العراق فى جنود لا تحصى ولم يكن لسابور حيلة لدفعه ولقائه لفاجأته اياه فانصرف سابور عن اللقاء الى الحيلة فى دفعه وكان من أمره ما وصفنا وكان ملكه الى أن هلك سنة وقيل أكثر من ذلك وهو الملك الثالث بعد ظهور دين النصرانية ولما هلك بليانس جزع من كان معه من الملوك والبطارقة والجنود فنزعوا الى بطريق كان معظما فيهم يقال له ميرنياس وقيل انه كاتب الماضى فابى عليهم أن يتملك الا أن يرجعوا الى دين النصرانية فأجابوه الى ذلك وضايق سابور القوم وأحاط بعساكرهم فكان لميرناس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة ثم افترقا وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور وأخلف عليه ما أتلف من أرضه باموال حملها اليه وهدايا من لطائف الروم وشيد هيا كل فى دين النصرانية وردها الى ما كانت عليه ومنع من الاصنام والتماثيل وقتل على عبادتها وكان ملكه سنة (ثم ملك بعده) اوانيس وهو على دين النصرانية ثم رجع عنها وهلك فى بعض حروبه وكان ملكه الى أن هلك أربع عشرة سنة وقيل ان فى أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بعثوا أحدهم بورقهم الى المدينة وهذا الموضع من أرض الروم فى الشمال والناس ممن عنى بعلم الفلك وازورار الشمس عن كهفهم فى حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير وقد أخبر الله تعالى فى كتابه قال وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم الآية وكان من أهل مدينة افسس من أرض الروم (ثم ملك بعد أوانيس) عرامطناميس خمس عشرة سنة ولسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية وهو أحد الاجتماعات باسم القوم فى روح القدس عندهم وأحرقوا مقدويس بطريق القسطنطينية وهو السندوس الثانى (ثم ملك بعده) بدرسيس الاكبر وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله وقام بدين النصرانية وعظم منها وبنى كنائس ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم وانما كان أصله من الاشبان وهم بعض الملوك السالفة وكان ممن ملك الشام ومصر والانداس وقد تنازع الناس فيهم فذكر الواقدى فى كتاب فتوح الامصار أن بدأهم من أهل اصبهان وانهم ناقلة من هنالك وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الاولى

وذكر عبد الله بن خرداذبه نحو ذلك وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والاخبار والاشهر من أمرهم أنهم ولد يافث بن نوح وهم من ملوك الاندلس من الازارقة واحدهم ازريق وقد تنوزع فى ديانتهم فمنهم من رأى أنهم على دين المجوس ومنهم من رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الاصنام وقد قلنا ان الاشهر من أنسابهم أنهم ولد يافث بن نوح فكان مدة ملك بدرسيس الى أن هلك عشر سنين (ثم ملك بعده) أوبادس أربع عشرة سنة وكان على دين النصرانيه (ثم ملك بعده) ابنه بدرسيس الاصغر وذلك بمدينة افسس وجمع مائتى أسقف وهذا الاجتماع الثالث الذى قدمنا ذكره آنفا ولعن فيه نسطورس البطرك وقد ذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان الحبة التى وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينيه صاحب الكرسى بالاسكندريه وما كان من نسطورس ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب وما كان فى بدرياز وجة الملك الى أن نفى نسطورس من القسطنطينيه الى انطاكيه ثم منها الى صعيد مصر والمشارقة من النصارى اضيفوا الى نسطورس لانهم اتبعوه وقالوا بقوله وانما وسمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيرهم وتعييبهم بذلك وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من المشرق تدعى بالعباد وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الاضافة الى نسطورس ويكرهون أن يقال لهم نسطورية وقد أيدبرصوما مطران نصيبين رأى المشارقة فى الثالوث وهو الكلام فى الاقانيم الثلاثة والجوهر الواحد وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث وكان ملك بدرسيس الى أن هلك اثنتين وأربعين سنة (ثم ملك بعده) مرقيانوس (ثم ملك الروم) بلخاريا زوجة مرقيانوس وكانت ملكة معه وفى أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى ووقوع الخلاف بينهم فى الثالوث وكان ملكها سبع سنين وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها الا اليسير فانهم ملكية والنوبة والارمن يعاقبة ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فمات وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم وكرسى اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة انطاكية وكذلك لهم كرسى بمصر ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين وهما مصر وانطاكيه (ثم ملك بعدها) ليون الاصغر ابن ليون وكان ملكه ست عشرة سنة وكان فى أيامه احترم معسره اليعقوبى بطرك الاسكندريه واجتمع له من الاساقفة ستمائة وستون أسقفا وفى تاريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا وذلك بخلقدونية وهذا الاجتماع هو السندوس الرابع عند الملكية واليعاقبة لا تعتد بهذا السندوس وانهم خبر طريف فى قصة سوارى البطرك وما كان من أمره وخبر تلميذه يعقوب البراذعى ودعوته الى مذهب سوارى واليعاقبة أضيفت الى مذهب يعقوب البراذعى هذا وبه عرفت وكان من أهل انطاكية يعمل البراذع (ثم ملك بعده) ليون الاصغر ابن ليون سنة على دين الملكية (ثم ملك بعده) بيروهو من بلاد الارمنيان وكان يذهب الى رأى اليعقوبية وكان ملكه

سبع عشرة سنة وكان له حروب مع خوارج خرجوا عليه من دار الملك فظفر بهم (ثم ملك بعده) نسطاس وكان يذهب الى مذهب اليعقوبية وبنى مدينة عمورية وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة وكان ملكه الى ان هلك تسعا وعشرين سنة (ثم ملك بعده) يوسطيانوس تسع سنين (ثم ملك بعده) سطايانس تسعا وثلاثين سنة وقيل أربعين وبنى كنائس كثيرة وشيد دين النصرانية وأظهر مذاهب الملكية وبنى كنيسة الرها وهى احدى عجائب العالم والهياكل المذكورة وقد كان فى هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى وذلك ان يسوع الناصرى حين أخرج من ماء المعمودية تنشف به فلم يزل هذا المنديل يتداول الى أن قر بكنيسة الرها فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها فى هذه السنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة أعطى هذا المنديل للروم فنحوا الى الهدنة وكان للروم عند تسليمهم هذا المنديل فرح عظيم (ثم ملك بعده) ابن أخيه فرسطيس ثلاث عشرة سنة على رأى الملكية (ثم ملك بعده) طباريس أربع سنين وأظهر فى ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك (ثم ملك بعده) موريقس عشرين سنة ونصر كسرى ابرويز على بهرام جور فقتل غيلة وبعث ابرويز غضبا له بجيوش الى الروم وكانت لهم حروب على حسب ماقدمنا (ثم ملك بعده) قرماس ثمان سنين الى أن قتل أيضا (ثم ملك هرقل) وكان بطريقا فى بعض الجزائر قبل ذلك فعمر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام وبنى الكنائس وسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة شرفها الله تعالى

(ذكر ملوك الروم بعد ظهور الاسلام)

(قال المسعودى) وجدت فى كتب التواريخ تنازعا فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم وفى عصر من كان من ملوك الروم فمنهم من ذهب الى ماقدمناه من مولده وهجرته ومنهم من رأى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى ملك نوسطوروس الاول وكان ملكه تسعا وعشرين سنة (ثم ملك نوسطورس) وكان ملكه عشرين سنة (ثم ملك بعده) هرقل بن منطيوس وهو الذى فى كتب الزيجات فى النجوم وعليه يعمل أهل الحساب وفى تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف أن ملك الروم كان فى وقت ظهور الاسلام وأيام أبى بكر وعمر هرقل وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الاخبار والسير الا فى اليسير منها وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن مورق (ثم ملك بعده) قيصر بن قيصر وذلك فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه (ثم ملك) على الروم هرقل بن قيصر وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو الذى حاربه أمراء الاسلام الذين فتحوا الشام مثل أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان

وغيرهم من أمراء الاسلام حين أخرجوه من الشام وكان الملك على الروم مورق بن هرقل فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه (ثم ملك) مورق بن مورق فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه وأيام معاوية بن أبى سفيان (ثم ملك بعده) قلفط بن مورق بقية أيام معاوية وكانت بينه وبين معاوية هر اسلات ومهادنات وكان المختلف بينهما نياق الروم غلام كان لمعاوية وقد كان معاوية هادن أباه مورق بن مورق حين سار الى حرب على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان بشره بالملك وأعلمه أن المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم يعنى عثمان ثم يؤول الملك الى معاوية وقد كان معاوية يومئذ أميرا على الشام لعثمان فى خبر طويل قد أتينا على ذكره فى الكتاب الاوسط وأن ذلك من علم الملاحم تتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم وكان ملك قلفط بن مورق فى الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد ابن معاوية وأيام معاوية بن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدرا من أيام عبد الملك بن مروان (ثم ملك) لاون بن قلفط فى أيام عبد الملك بن مروان وكان الملك بعده جيرون بن لاون فى أيام الوليد ابن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين اياهم فى البر والبحر فملكوا عليهم رجلا من غير أهل بيت الملك من أهل مرعش يقال له جرجيس وكان ملكه تسع عشرة سنة ولم يزل ملك الروم مضطربا الى أن ملكهم قسطنطين بن اليون وذلك فى خلافة أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور أخيه (ثم ملك بعده) اليون بن قسطنطين وذلك فى أيام المهدى والهادى (ثم ملك بعده) قسطنطين بن اليون وكانت أمه اربين ملكة معه مشاركة له فى الملك اصغر سنه فى أيام هارون الرشيد فمات قسطنطين ابن اليون وسملت عينا أمه بعد ذلك لاخبار يطول ذكرها (ثم ملك) على الروم يعفور بن اسدراق وكانت بينه وبين الرشيد هر اسلات وغزاه الرشيد فاعطى القود من نفسه بعد بغى كان منه فى بعض هر اسلاته فانصرف الرشيد عنه ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد وكتم عن الرشيد أمره لعارض علة كان وجدها بالرقة

(ذكر مصر وأخبارها ونيلها وعجائبها واخبار ملوكها وغير ذلك مما اتصل بهذا الباب)

(قال المسعودى) ذكر الله جل ثناؤه مصر فى مواضع من كتابه فقال عز وجل وقال الذى اشتراه من مصر وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين وقال تعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا وقال اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وقوله تعالى وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ووصف بعض الحكماء مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة حمراء فاما اللؤلؤة البيضاء فان مصر فى شهر أبيب وهو تموز ومسرى وهو آب وتوت وهو ايلول يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها

على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد الى بعض الا فى الزوارق وأما المسكة السوداء فان فى شهر بابه وهو تشرين الاول وهاتور وهو تشرين الثانى وكيهك وهو كانون الاول ينكشف الماء عنها وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء وفيها تقع الزراعات وللارض روائح طيبة تشبه روائح المسك وأما الزمردة الخضراء فان فى شهر طوبه وهو كانون الثانى وأمشير وهو شباط وبرمودات وهو أذار تلمع ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء وأما السبيكة الحمراء فان فى شهر برمودة وهو نيسان وبشنس وهو أيار وبؤونه وهو حزيران يبيض الزرع فيه ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة وسنذكر هذه الشهور بالسريانية والعربية والفارسية ونسمى كل شهر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب وان كنا قد أتينا على جميع ذلك فى الكتاب الاوسط ووصف آخر مصر فقال نيلها عجب وأرضها ذهب وخيرها جلب وملكها لمن سلب ومالها رغب وفى أهلها صخب وطاعتهم رهب وسلامهم نعب وحروبهم حرب وهى لمن غلب ونهرها النيل من سادات الانهار وأشراف البحار وقالت الهند زيادته ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالى الانواء وتوالى الامطار وركود السحاب وقالت الروم لم يزد قط ولم ينقص وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت وقالت القبط زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه وقيل لم يزد قط وانما زيادته بريح الشمال اذا كثرت واتصلت به فتحبسه فيفيض على وجه الارض وقد ذكرنا التنازع فى النيل وزيادته ممن سلف وخلف على الشرح والايضاح وغيره من الانهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار فى أخبار الزمان فى الفن الثانى فاغنى ذلك عن اعادتها فى هذا الكتاب ومصر من سادات القرى ورؤساء المدن قال الله تعالى حاكيا عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون وقال الله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذى بدأ النيل منه وما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام فى البدء والمحاق وقد روى عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى فان لم يصبها وابل فطل قال هى مصر ان لم يصبها وابل زكت وان أصابها مطر ضعفت وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها

مصر ومصر شأنها عجيب * ونيلها تجرى به الجنوب

وهى مصر واسمها كمعناها وعلى اسمها سميت الامصار ومنها اشتق هذا الاسم عند علماء المصريين وقد قال عمرو بن معدى كرب

ما النيل أصبح واحدا بمدوده * وجرت له ريح الصبا فجرى لها
عودت كندة عادة محمودة * فاصبر لجاهلها وروّ بحبالها

(قال المسعودى) ويبتدئ نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بؤونه وهو حزيران وأبيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر بؤنة كله وهو ايلول الى انقضائه فاذا انتهت الزيادة الى ستة عشر ذراعا ففيه تمام الخراج وخصب الارض وربيع للبلد عام وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلا وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا وفى ذلك كفايتها وري جميع أرضها واذا زاد على السبعة عشر وبلغ الثمانية عشر ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من وجه الاستبحار وغير ذلك وان كانت الزيادة ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر وأكثر الزيادات ثمانية عشر ذراعا وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسعة عشر ذراعا وذلك فى سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز ومساحة الذراع الى أن تبلغ اثنى عشر ذراعا ثمانية وعشرون أصبعا ومن اثنى عشر ذراعا الى ما فوق يصير الذراع أربعة وعشرين أصبعا وأقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع وفى نيل تلك السنة يكون الماء قليلا والاذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان يسميان منكرا ونكيرا وهما الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر فاذا انصرف الماء عن هذين الذراعين أعنى الثالث عشر والرابع عشر وزيادة نصف ذراع من الخامس عشر واستسقى الناس بمصر كان الضرر شاملا لكل البلدان الا أن يأذن الله عز وجل فى زيادة الماء واذا تم خمسة عشر ودخل فى ستة عشر ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه وكان ذلك نقصا من خراج السلطان والترع التى بغيضة مصر أربع أمهات ترعة ذنب التمساح وترعة بلقينه وخليج سردوس وخليج ذات الساحل وتفتح هذه الترع اذا كان الماء زائدا فى عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من بؤنة وهو ايلول وقد قدمنا خبر تسمية هذا اليوم بعيد الصليب فيما سلف من هذا الكتاب والنبيذ الشيرازى يتخذ بمصر من ماء طوبه وهو كانون الآخر بعد الغطاس وهو لعشر تمضى من طوبه وأصفى ما يكون النيل فى ذلك الوقت وأهل مصر يفتخرون بصفاء النيل فى هذا الوقت وفيه يختزن المياه أهل تنيس ودمياط وبوتيه وسائر قرى البحيرة وليلة الغطاس شأن عظيم عند أهلها لا يتم الناس فيها وهى ليلة أحد عشر تمضى من طوبه وستة من كانون الثانى ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فاسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة

والجواهر والملاهي والعزف والقصف وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا لا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء (قال المسعودي) وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه فاني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي صلى الله عليه وسلم حين بنى الاهرام اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه وأن ذلك كان بمنف ولم يكن بنى الفسطاط يومئذ وأن دلوكه الملكة العجوز وضعت مقياسا آخر بالصعيد بلاد اخميم فهذه المقاييس الموضوعة قبل مجيء الاسلام ثم ورد الاسلام وافتتحت مصر وكانوا يعرفون زيادة النيل بما ذكرنا ونقصانه بما وصفنا الى أن ولي عبد العزيز بن مروان فاتخذ مقياسا لجزيرة تدعى جزيرة الصناعة وهي الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة والمعبر عليها من الفسطاط على الجسر ثم منها على جسر آخر الى الجزيرة وهو بين الجانب الغربي من الفسطاط والجانب الشرقي وهذا المقياس الذي اتخذه أسامة بن زيد التنوخي هو أكثرها استعمالا واتخذ ذلك في أيام سليمان ابن عبد الملك بن مروان وهو المقياس الذي يعمل عليه في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بالفسطاط وقد كان من سلف يقيسون بالمقياس الذي بمنف ثم ترك استعماله وعمل على مقياس الجزيرة المعمول في أيام سليمان بن عبد الملك وفي هذه الجزيرة مقياس آخر لاحمد بن طولون والعمل عليه عند كثرة الماء وترادف الرياح واختلاف مهابها وكثرة الموج وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا عامرها وغامرها لما أحكموا من جسورها وبناء قناطرها وتنقية خلجانها وكان بمصر سبع خلجان فنها خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج المنهى وكانت مصر فيما يذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جنانا وذلك أن جنانها كانت متصلة بحافتي النيل من أوله الى آخره من حد اصوان الى رشيد وكان الماء اذا دخل في زيادته الى تسعة أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وكان الذي ولي حفر خليج سردوس لفرعون عدو الله هامان فلما ابتدأ في حفره أتاه أهل القرى يسألونه أن يجري الخليج الى تحت قراهم ويعطوه على ذلك ما أراد من المال وكان يعمل ذلك حتى اجتمعت له أموال عظيمة فحمل تلك الاموال الى فرعون فلما وضعها بين يديه سأله عنها فاخبره بما فعل فقال انه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم معروفه ولا يرغب فيما في أيديهم ونحن أحق من فعل هذا بعبيده فاردد على أهل كل قرية ما أخذته منهم ففعل ذلك هامان وردّ لاهل كل قرية ما أخذ منهم فليس في الخلجان التي بارض مصر أكثر عطوفا وعراقيل من خليج سردوس وأما خليج الفيوم وخليج المنهى فان الذي حفرهما يوسف بن يعقوب صلى الله عليه وسلم وذلك أن الريان بن الوليد ملك مصر لما رأى رؤياه في البقر والسنابل وعبرها يوسف عليه السلام

استعمله على ما كان يلى من أرض مصر وقد أخبر الله بذلك عند اخباره عن نبيه يوسف بقوله اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم (قال المسعودى) وقد تنازع أهل الملة فى تصرف المؤمنين مع الفاسقين فمنهم من رأى أن الملك كان مؤمنا ولولا ذلك ما وسع يوسف معاونة الكفار والتصرف فى أوامرهم ونواهيهم ومنهم من رأى أن ذلك جائز على ما يوجبه أحوال الوقت والاصلح للعمال وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخلجانها من المرتفع والمطاطى ومطاطى المطاطى وهذه عبارة أهل مصر يريدون بذلك المنخفض وكيفية فعل يوسف فيها وعمارته أرضها بعد كونها خربة ومصفاة لمياه الصعيد وهى جزيرة قد أحاط المياه حينئذ باكثر أقطارها فقد أتينا على ذلك فى الكتاب الاوسط فاغنى عن اعادته فى هذا الكتاب وكذلك فى تسمية الفيوم فيوما وأن ذلك ألف يوم وما كان من يوسف مع الوزراء وحسدهم اياه وقد كانت مصر على ما زعم أهل الخبرة والعناية باخبارها أن العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد الى أسفل الارض وموضع الفسطاط فى وقتنا هذا وقد كان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل من اسوان الحبشة وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب الى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه وما ينقل من النوبة بتياره من موضع الى موضع فنبض من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ما وصفنا عن صاحب المنطق من عمران الارض وخرابها فيما سلف من هذا الكتاب فسكن الناس بلاد مصر ولم يزل الماء ينضب عن أرضها اقليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر وطرقوا الماء وحفروا له الخلجان وعقدوا فى وجهه المسناة الى أن خفى ذلك على ساكنيها لان طول الزمان أذهب معرفة أول سكناهم كيف كان ذلك ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامتناع المطر بمصر ولا لكثير من أخبار الاسكندرية وكيفية بنائها والامم التى تداولتها والملوك التى سكنتها من العرب وغيرها لانا قد أتينا على ذلك فى الكتاب الاوسط وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من أخبارها وجوامع من كيفية بنائها وما كان من أمر الاسكندر فيها (قال المسعودى) وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه فى سنة نيف وستين ومائتين أن رجلا بأعالى بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الانباط ممن يشار اليهم بالعلم من لدن حداثته والنظر والاشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل وأنه علامة بمصر وأرضها على برها وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها وأنه ممن سافر فى الارض وتوسط الممالك وشاهد الامم من أنواع البيضان والسودان وأنه ذو معرفة بهيآت الافلاك والنجوم وأحكامها فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه فحمله فى النيل اليه مكرما وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى أعلاه

وقد رأى الرابع عشر من ولده فلما مثل بحضرة احمد بن طولون نظر الى رجل دلائل الهرم فيه بينة وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة والحواس سليمة والقضية قائمة والعقل صحيح يفهم عن مخاطبه ويحسن البيان والجواب عن نفسه فاستكنه بعض مقاصيره ومهد له وحمل له لذيذ المآكل والمشارب فابى أن لا يتواطى على شئ وأن لا يتغذى الا بغذاء كان حمله معه من كعك وغيره وقال هذه بنية قوامها بما ترون من هذا الغذاء وهذا الملبس فان أنتم سمتموها النقلة عن هذه العادة وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس كان ذلك سبب انحلال هذه البنية وتفريق هذه الصورة فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته وأحضر له احمد بن طولون من حضره من أهل الديار وصرف همته عليه وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة يسمع كلامه وارداته وجوابانه فيما سئل عنه فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط فقال كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثراوة وكانت جنانا ونخلا وكروما وشجرا ومزارع وكانت فيها انجار على ارتفاع من الارض وقرى على قرارها ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الارض ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها ولم يكن بمصر كرة يقال انها تشبهها الا الفيوم وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغريبة وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء يسقون منه جنانهم اذا شاؤا وكذلك زروعهم وسائره يصب الى البحر من سائر خلجانه ومن الموضع المعروف بالاشتوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض نحو مسيرة يوم وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة الى قبرس تسلكه الدواب يبسا ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس الا مخاضة وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش في البحر سير طويل وكذلك فيما بينها وبين أرض الروم وقد كان بين الاندلس في الموضع الذي يسمى الخضراء وهو قريب من فاس المغرب وطنجة قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الابل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الاندلس الى المغرب وماء البحر تحت تلك القنطرة منقطع خلجانات صغار تجري تحت قناطرها وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صم وقد عقد من كل جانب حجر الى حجر طاق وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من الاوقيانوس وهو البحر المحيط الاكبر فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويهول أرضا فارضا في طول على ممر السنين يرى زيادته أهل كل زمان ويتبينه أهل كل عصر ويقفون عليه حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين قبرس وعلا القنطرة التي كانت بين الاندلس وبر طنجة وما وصفت فبين ظاهر عند أهل الاندلس وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة وربما بدا الموضع لاهل المراكب تحت الماء فيقولون هذه القنطرة وكان طولها نحو اثني عشر ميلا وعرض واسع وسمويين فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة

تنيس فاغرقه وصار يزيد في كل عام حتى أغرقها باجمعها فما كان من القرى التي في قرارها غرق وأما التي كانت على ارتفاع من الارض فبقيت منها بقية وسيعود وغير ذلك مما هي باقية الى هذا الوقت وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس فيغيبونهم واحدا فوق واحد وهي الاكوام الثلاثة التي تسمى أبو الكوم وكان استحكام غرق هذه الارض باجمعها وقد مضى لديقلطيانوس الملك مائتان واحدى وخمسون سنة وذلك قبل ان تفتح مصر بمائة سنة قال وقد كان الملك من ملوك الامم كانت داره اليوم مع اركون من أركانه البلينا وما اتصل بها من الارض خروق وخلجانات وخنادق فتحت من النيل الى البحر يمنع كل واحد من الآخر وكان ذلك داعيا التشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الارض وسئل عن ملوك الاحابش على النيل وممالكهم فقال لقيت من ملوكهم ستين ملكا في ممالك مختلفة كل ملك منهم ينازع من يليه من الملوك وبلادهم حارة يابسة مسودة ويبسها لحرارتها ولاستحكام النار فيها تغيرت الفضة ذهبا لطبخ الشمس اياها لحرارتها ويبسها ونار يتها فتحولت ذهبا وقد يطبخ الذهب الذي يؤتى به من المعدن خالصا صافيا بالملح والزجاج والطوب فيخرج منه فضة خالصة بيضاء وليس يدفع هذا الامر الا من لا معرفة له بما وصفنا ولا قارب شيأ مما ذكرنا قيل له فما منتهى النيل في أعاليه قال البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها وهي نحو الارض التي الليل والنهار مستويان فيها طول الدهر وهي تحت الموضع الذي تسميه المنجمون المنطقة المستقيم وما ذكرت فمعروف غير منكر وسئل عن بناء الاهرام فقال انها قبور الملوك كان الملك منهم اذا مات وضع في حوض حجارة ويسمى بمصر والشام الجرن وأطبق عليه ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الاساس ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان والاقباء ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريق في الارض بعقد أزج فيكون طول الازج تحت الارض مائة ذراع وأكثر ولكل هرم من هذه الاهرام باب يدخل منه على ما وصفت فقيل له فكيف بنيت هذه الاهرام الملسة وعلى أي شئ كانوا يصعدون ويبنون وعلى أي شئ كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد الا بجهدان قدروا فقال كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج فاذا فرغوا منه نحتوه من فوق الى أسفل فهذه كانت حيلتهم وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم ديانة فقيل له ما بال هذه الكتابة التي على الاهرام والبرابي لا تقرأ فقال درس الكتاب وأهل العصر الذين كان هذا اقلهم وتداول أرض مصر الامم فغلب على أهلها القلم الروحي كاشكال أحرف القبط والروم بأحرفها على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الروحي والقبطي الاول فذهب عنهم كتابة آبائهم فقيل له فمن أول من سكن مصر فقال أول من نزل هذه الارض مصر بن بيصر بن حام بن نوح

ومر فى انساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم فى الارض فقيل له أتعرف بمصر قطع رخام
قال نعم فى الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا
يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر فنها العمد والقواعد والرؤس التى تسميها أهل مصر الاسوانية ومنها
حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون بعد حدوث النصرانية بثنين من السنين ومنها العمد التى
فى الاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله وقد رأيت فى جبل اسوان أخا هذا
العمود قد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحك ما ظهر منه وانما كانوا ينتظرون أن يفصل من
الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم وسئل عن مدينة العقاب فقال هى غرب اهرام بوصير الجزيرة
وهى على بعد خمسة أيام بلياليها للراكب المجد وقد عورت طريقها وعميت المسالك اليها والسمت
الذى يؤدى نحوها وذكر ما فيها من عجائب البنيان والجواهر والاموال والعلة التى لها سميت
مدينة العقاب ووصف مدينة أخرى غرب اخميم من أرض الصعيد ذات بنيان عجيب اتخذتها الملوك
السالفة وذكر من شأن هذه المدينة الاخرى عجائب من الاخبار وزعم أن بينها وبين اخميم من أرض
الصعيد مسيرة ستة أيام وسئل عن النوبة وأرضها فقال هم أصحاب ابل وبخت وبقر وغنم وملكهم
يستعد الخيل العتاق والاغلب من ركوب عوامهم البراذين ورميهم بالنبل عن قسى عربية وعنهم
أخذ الرمى أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب وهم الذين تسميهم العرب رماة الحدق ولهم النخل
والكرم والذرة والموز والحنطة وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن والنوبة أترج كأكبر ما يكون
بارض الاسلام وملوكهم تزعم أنهم من حمير وملكهم يستولى على مقرا ونوبة وعلوة ووراء علوة أمة
عظيمة من السودان تدعى بكنة وهم عراة كالزنج وأرضهم تنبت الذهب وفى مملكة هذه الامة
يخترق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ثم يحصر الخليج من بعد انفصاله من النيل وينحدر الاكثر
الى بلاد النوبة وهو لا يتغير فاذا كان فى بعض الازمنة انفصل الاكثر من الماء فى ذلك الخليج
وبقى الاكثر واخضر الاقل فيشق ذلك الخليج أودية وخلجانا وأعماقا مأنوسة حتى يخرج الى
جلاسق والجنوب وذلك ساحل الزنج ومصبه فى بحرهم ثم سئل عن الفيوم والمنهى وحجر اللاهون
فذكر كلاما طويلا فى أمر الفيوم وان جارية من بنات الروم وابنها نزلوا الفيوم وكانوا البدء فى عمارتها
وعمارة أرضها وانما كان الماء يأتى الفيوم من المنهى أيام جرى النيل ولم يكن حجر اللاهون بنى وانما
كان مصب الماء من المنهى من الموضع المعروف بدمونه ثم بنى اللاهون على ما هو اليوم عليه ويقال
ان يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام بناه أيام العزيز ودبر من أمر الفيوم ما هو
اليوم قائم بين من الخليج المرتفعة المطاطية وهو خليج فوق خليج فوق خليج وهى القنطرة المعروفة
بسفونه وأقام العمود الذى فى وسط الفيوم وهو غائص فى الارض لا يدرك منتهاه وهو أحد عجائب

الدنيا مربع الشكل قد جهد أناس من الامم ممن ورد بعد يوسف عليه السلام أن ينتهوا الى آخره في الارض حفرا فلم يتأت لهم ذلك وغلبهم الماء فعجزهم ورأس هذا العمود مساو لارض المنهى قال وأما حجر اللاهون فانه من سطح الحجر الذى فيما بين الفرش الى ناحية اللاهون واللاهون هى القرية بعينها ففيها من السطح الى القرية ستون ذراعا وربما قل الماء في المنهى وظهر بعض الدرج وفي حائط الحجر فوارات بعضها اليوم يخرج منه الماء وبعض لا يرى وفيما بين سطح الحجر الذى ما بين النقبين وبين القرية شاذروات وهو أسفل من الدرج وانما يدخل الماء الفيوم بدرب الحجر وجعلت الاسقالة وهى القناطر ليخرج الماء منها ولا يملوا الماء الحجر أيام سده فبالتقدير ببناء حجر اللاهون وبقدر ما يكفى الفيوم من الماء يدخل اليها وبناء حجر اللاهون من أعجب الامور ومن أحكم البنيان ومن البناء الذى يبقى على وجه الارض لا يتحرك ولا يزول بالهندسة عمل وبالفلسفة أتقن وفي السعود نصب وقد ذكر كثير من أهل بلدنا أن يوسف عليه السلام عمل ذلك بالوحى والله أعلم ولم تزل ملوك الارض اذا غلبت على بلادنا واحتوت على أرضنا صارت الى هذا الموضع فتأملته لما قدمنى اليها من أخباره وسار في الخليقة من عجائب بنيانه واتقانه وكان هذا الرجل من أقباط مصر ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية فامر احمد بن طولون في بعض الايام وقد أحضر مجلسه بعض أهل النظر ان يسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية فسأله عن ذلك فقال دليلى على صحتها وجودى اياها متناقضة متنافية تدفعها العقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لا نظريقويها ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها ورأيت مع ذلك أمما كثيرة وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحس قد انقادوا اليها وتدينوا بها فعلمت أنهم لم يقبلوها ولم يتدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها في العقل الا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدين بها قال له السائل وما التضاد الذى فيها قال وهل يدرك أو يعلم غايته منها قولهم بان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووصفهم الاقانيم والجوهر وهو الثالوث وهل الاقانيم في أنفسها قادرة عالمة أم لا وفي اتحادهم القديم بالانسان المحدث وما جرى في ولادته وقتله وصلبه وهل في التشنيع أكبر وأفحش من اله صلب وبصق في وجهه ووضع على رأسه الاكليل من الشوك وضرب رأسه بالقضيب وسمرت يداه ورجلاه بالاسنة والخشب جنباه وطلب الماء فسقى الخل في بطيخ الحنظل فامسكوا عن مناظرته وانقطعوا عن مجادلته لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه فقال طبيب لابن طولون يهودى قد حضر المجلس أيأذن لى الامير في مخاطبته قال شأنك فاقبل على القبطى مسائلا له فقال له القبطى وما أنت أيها الرجل وما نحلتك قال له يهودى فقال له مجوسى اذا قال له كيف ذلك وهو يهودى قال لانهم يرون نكاح البنات

فى بعض الحالات اذ كان فى دينهم أن الاخ يتزوج بنت أخيه وعليهم أن يتزوجوا نساء اخوتهم اذا ماتوا فاذا وافق اليهودى أن تكون امرأة أخيه ابنته لم يجد بدا من أن يتزوجها وهذا من أسرارهم ومما يكتمونه ولا يظهرونه فهل فى المجوسية أشنع من هذا فانكر اليهودى ذلك وجد أن يكون فى دينه أو يعرفه أحد من اليهود فاستخبر ابن طولون صحة ذلك فوجد الطبيب اليهودى قد تزوج امرأة أخيه وكانت بنته ثم أقبل القبطى على ابن طولون فقال أيها الامير هؤلاء يزعمون وأشار الى اليهودى أن الله خلق آدم على صورته وعن نبى من أنبيائهم سماه قال فى كتابه انه رآه فى قديم الزمان أبيض الرأس واللحية وان الله تعالى قال انى أنا النار المحرقة والحمى الآخذة وأنا الذى آخذ الابناء بذنوب الآباء ثم فى توراتهم أن بنات لوط سقينه الخمر حتى سكر وزنى بهن وحمل منه وولدن وأن موسى رد على الله الرسالة مرتين حتى اشتد غضب الله عليه وأن هارون صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل وأن موسى أظهر معجزات لفرعون وفعلت السحرة مثلها ثم قالوا فى ذبائح الحيوان والتقرب من الله بدمائها ولحومها وتحكمهم على العقل ومنعهم من النظر بغير برهان وهو قولهم ان شريعتهم لا تنسخ ولا يقبل قول أحد من الانبياء بعد موسى اذا انحرف عما جاء به موسى ولا فرق فى قضية العقل بين موسى وغيره من الانبياء اذا أتى ببرهان وبان بحجة ثم الاكبر من كفرهم قولهم فى يوم عيد الكفور وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الاول أن الرب الصغير يصومونه منتظرون يقوم فى هذا اليوم قائما وينتف شعور رأسه ويقول ويلى اذا خربت بيتى وايتمت بنتى قامتى منكسة لا أرفعها حتى آتى بنتى وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ومناقضات واسعة ولهذا القبطى مجالس كثيرة عن احمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والريصانية والثنوية والصابئة والمجوس وعدة من متكلمى الاسلام وقد أتينا على ما احتمل منها ايراده فى كتابنا أخبار الزمان وذكرنا جميع ذلك فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وكان هذا القبطى على ما نمى الينا من خبره وصح عندنا من قوله يذهب الى فساد النظر والقول بتكافؤ المذاهب وأقام عند ابن طولون بحوسنة فاجازه وأعطاه فأبى قبول شئ من ذلك فرده الى بلده مكرما وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ثم هلك وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرناه عنه والله أعلم بكيفية ذلك (قال المسعودى) وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوانات مما فى البر والبحر من ذلك السمك المعروف بالرعاد وهو نحو الذراع اذا وقعت فى شبكة الصياد رعدت يداه وعضداه فيعلم بوقوعها فيبادر الى أخذها واخراجها من شبكته ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك وقد ذكرها جالينوس وأنها ان جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة عدا من ساعته والفرس الذى يكون فى نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الارض علم أهل مصر أن النيل يزيد الى

ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب وفى ظهوره من الماء ضرر لارباب الارض والفلاة لرعيه الزرع وذلك انه يظهر من الماء فى الليل فينتهى الى موضع من الزرع ثم يولى عائدا الى الماء فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى اليه مسيره ولا يرعى من ذلك شيأ فى ممره كانه يحدد مقدار ما يرعاه فيها اذا رعت ووردت الى النيل فشربت ثم تقذف ما فى أجوافها فى مواضع شتى فينبت ذلك مرة ثانية فاذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بارباب الضياع طرح له الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبددا مبسوطا فيأكله ثم يعود الى الماء فيربو فى جوفه ويزداد فى انتفاخه فيشق جوفه فيموت ويطفو على الماء ويقذف به الى الساحل والموضع الذى يكون فيه لا يكاد يرى فيه تمساح وهو على صورة الفرس الا أن حوافره والذنب بخلاف ذلك والجبهة أوسع (من السعودى)

(ذكر ملوك اليونانيين بعد الاسكندر)

(ثم ملك بعد الاسكندر) الملك خليفته بطليموس وكان حكيما عالما شابا مدبرا وكان ملكه أربعين سنة وقيل بل كان ملكه عشرين سنة وقد كان لهذا الملك وهو التالى لملك الاسكندر حروب مع بنى اسرائيل وغيرهم من ملوك الشام وذكر جماعة من أهل الدرايات بأخبار ملوك العالم أنه أول من اقتنى البزاة ولعب بها واضراها وأنه ركب فى بعض الايام فى طربه الى بعض متنزهاته فنظر الى باز يطير فرآه اذا علا صعب واذا سفل خفق واذا أراد أن يستوى ذرق فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك فتأمله فأعجبه صفاء عينيه وصفرتهما وكمال خلقه فقال هذا طائر حسن له سلاح وينبغى أن تتزين به الملوك فى مجالسها فأمر أن يجمع منها عدة لتكون فى مجلسه زينة فعرض لبازيم منها ايم وهو الحية الذكر فوثب عليه البازى فقتله فقال الملك هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجنا فوثب عليه البازى فأكل الاحريصا فقال الملك هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم ثم مر طائر فوثب عليه فأكله فقال الملك هذا ملك يمنع حماه ولا يضيع أكله فلعب بها ثم لعب بها بعده ملوك الامم من اليونانيين والروم والعرب والعجم وغيرهم وثنى من بعده من ملوك الروم بلعب الشواهين والاصطياد بها وقد قيل ان الازارقة وهم ملوك الاندلس من الاشبان أول من لعب بالشواهين وصاد بها وكذلك اليونانيون أول من صاد بالعقبان ولعب بها وقد ذكر أن ملوك الروم أول من صاد بالعقبان وقد كان من سلف من حكماء اليونانيين يقولون ان الجوارح أجناس خلقها الله تعالى وأنشأها على منازلها ودرجاتها وهى أربعة أجناس وثلاثة عشر شكلا فاما الاجناس الاربعة فهى البازى والشواهين والصقر والعقاب

(ثم ملك بعد بطليموس) هيفاوس وكان رجلا جبارا وفى أيامه عملت الطلسمات وظهرت عبادة التماثيل والاصنام لشبه دخلت عليهم وأنها وسائط بينهم وبين خالقهم تقربهم اليه وتدنيهم منه وكان ملكه ثمان وثلاثين سنة وقيل أربعين وقد قيل ان الذى تملك بعد خليفة الاسكندر بطليموس الثانى محب الاخ وغزا بنى اسرائيل ببلاد فلسطين وايلياء من أرض الشام فسباهم وقتل منهم وطلب العلوم ثم رد بنى اسرائيل الى فلسطين وحمل معهم الجواهر والاموال وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس وكان ملك الشام يومئذ أنطيخس وهو الذى بنى مدينة أنطاكية وكانت دار ملكه وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم فى البناء على السهل والجبل ومسافة السور اثنا عشر ميلا وعدة الابراج فيه مائة وستة وثلاثون برجا وجعل عدد شرافاته أربعة وعشرين ألف شرافة وجعل على كل برج من الابراج تبولة بطريق أسكنه اياه برجاله وخيله وجعل كل برج منها طبقات والبطريق فى أعلاه وجعل كل برج منها كالحصن عليها أبواب حديد وآثار الابواب ومواضع الحديد بين الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وأظهر فيها مياها من أعين وغيرها لاسبيل الى قطعها من خارجها وجعل اليها مياها منصبة فى قنى مخرقة الى شوارعها ودورها ورأيت فيها فى هذه المياه ما يستحجر فى مجاريها المعمولة من الخزف لترادف البصر فيها فيترا كم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده فلا يعمل الحديد فى كسره (ثم ملك) على اليونانيين بعد هيفاوس بطليموس الصانع ستا وعشرين سنة (ثم ملك) بعده عليهم بطليموس المعروف بمحب الاب تسع عشرة سنة وكانت له حروب مع ملوك الشام وصاحب انطاكية الاسكندروس وهو الذى بنى مدينة فامية بين حمص وانطاكية (ثم ملك) بعده على اليونانيين بطليموس صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى وغيره أربعا وعشرين سنة (ثم ملك) بطليموس محب الام خمسا وثلاثين سنة (ثم ملك) بعده بطليموس الصانع سبعا وعشرين سنة (ثم ملك) بطليموس المخلص سبع عشرة سنة (ثم ملك) بعده بطليموس الاسكندر انى اثنى عشر سنة (ثم ملك) بعده بطليموس الحديدى ثمان سنين (ثم ملك) بعده بطليموس الجوال ثمانيا وستين سنة وكانت له حروب كثيرة (ثم ملك) بعده بطليموس الحديد ثلاثين سنة (ثم ملكت) بعده ابنته قلبطرة وكان ملكها اثنتين وعشرين سنة وكانت حكيمة متفلسفة مقربة للعلماء معظمة للحكماء ولها كتب مصنفة فى الطب والزينة وغير ذلك من الحكمة مترجمة باسمها منسوبة اليها معروفة عند صنعة أهل الطب وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين الى أن انقضى ملكهم ودثرت أيامهم ومحيت آثارهم وزالت علومهم الا ما بقى فى أيدى حكمائهم وقد كان لهذه الملكة خبر ظريف فى موتها وقتلها لنفسها وقد كان لها زوج يقال له انطونيوس مشارك لها فى ملك مقدونية وهى بلاد مصر من اسكندرية وغيرها فسار اليهم الثانى من ملوك الروم ومن بلاد رومية

وهو أغسطس وهو أول من سمي قيصر واليه تنسب القياصرة بعده وكانت له حروب بالشام ومصر مع قلبطرة الملكة ومع زوجها انطونيوس الى أن قتله ولم يكن لقلبطرة في دفع أغسطس ملك الروم عن ملك مصر حيلة وأراد أغسطس اعمال الحيلة فيها لعلمه بحكمتها وليتعلم منها اذ كانت بقية الحكماء اليونانيين ثم بعدها يقتلها فراسلها وعلمت مراده فيها وما قد وتر هايه من قتل زوجها وجنودها فطلبت الحية التي تكون بين الحجاز ومصر والشام وهي نوع من الحيات تراعي الانسان حتى اذا تمكنت من النظر الى عضو من أعضائه قفزت أذرعا كثيرة كالرمح فلم تخط ذلك العضو بعينه حتى تثقل عليه سما فتأتي عليه ولا يعلم بها لخموده من فوره ويتوهم الناس أنه قد مات فجأة لحتف أنفه ورأيت نوعا من هذه الحيات بين بلاد خورستان من كور الاهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة وهو الموضع المعروف بحامر دوية بين مدينة دروق وبلاد الياسيان والعندم في الماء وهي حيات شبرية وتدعى هنالك القبرية ذات رأسين تكون في الرمل وفي جوف تراب الارض فاذا أحست بالانسان أو غيره من الحيوان وثبت من موضعها أذرعا كثيرة فضربت باحدى رأسيها الى أي موضع من ذلك الحيوان فتلحقه من ساعته ضد الحياة وعدمها الحينه فبعثت قلبطرة هذه الملكة فاحتمل لها حية من هذه المقدم ذكرها التي توجد بأطراف الحجاز فلما أن كان اليوم الذي علمت أن أغسطس يدخل قصر ملكها أمرت بعض جواريها ومن أحبت فناءها قبلها وأن لا يلحقها العذاب بعدها فسمتها في اناء ثم خمدت من فورها ثم جلست قلبطرة الملكة على سرير ملكها ووضعت تاجها على رأسها وعليها ثيابها وزينة ملكها وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا مبسوطة في مجلسها وقدام سريرها وعهدت بما احتاجت اليه من أمورها وفرقت حشمها من حولها فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم في دار ملكهم وأدنت يدها من الاناء الزجاج الذي كانت فيه الحية فقربت يدها من فيه فتفلت عليها الحية فخفت مكانها وانسابت الحية وخرجت من الاناء ولم تجد بحرا ولا مذهبا تذهب فيه لاتقان تلك المجالس بالرخام والمرمر والاصباغ فدخلت في تلك الرياحين ودخل أغسطس حتى انتهى الى المجلس فنظر اليها جالسة والتاج على رأسها فلم يشك في أنها انطق فدنا منها فتبين أنها ميتة وأعجب بتلك الرياحين فمد يده الى كل نوع منها يلمسه ويتبينه ويعجب خواص من معه به ولم يدر ما سبب موتها فبينما هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشمها اذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها فبيس شقه من ساعته وذهب بصره الايمن وسمعه فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها وايثارها الموت على الحياة مع الذل ثم ما كادته به من القاء الحية بين الرياحين فقال في ذلك شعرا بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوما وهلك ولولا أن الحية كانت قد

أفرغت سمها على الجارية ثم على قلبطرة الملكة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ولم تمهله هذه المدة وهذا الشعر معروف عند الروم الى هذه الغاية يذكرونه فى يومهم ويرثون به ملوكهم وربما ذكروه فى أغانيهم وهو متعالم معروف عندهم والذى يعول عليه من عدد ملوكهم واتفق على ذلك أهل المعرفة بأخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكا آخرهم الملكة قلبطرة وأن جميع عدد سنى ملوكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلثمائة سنة وسنة واحدة وكان كل ملك من ملوك اليونانيين من بعد الاسكندر بن فيلبش يسمى بطليموس وهذا الاسم الاعم الشامل لملكهم كتسمية ملوك الفرس كسرى وتسمية ملوك الروم قيصر وتسمية ملوك اليمن تبع وتسمية ملوك الحبشة النجاشى وتسمية ملوك الزنج وهلبن

ذكر ملوك اليونانيين
ولمع من أخبارهم وما قاله الناس فى بدء أنسابهم

(قال المسعودى) تنازع الناس فى فرق اليونانيين فذهب طائفة من الناس الى أنهم ينتمون الى الروم ويضافون الى ولد اسحاق وقالت طائفة أخرى ان يونان هو ابن يافث بن نوح وذهب قوم الى أنهم من ولد أوراس بن ياوان بن يافث بن نوح وذهب قوم الى أنهم قبيل متقدم فى الزمان الاول وانما وهم من وهم ان اليونانيين ينسبون الى حيث تنسب الروم وينتمون الى جدهم ابراهيم لان الديار كانت مشتركة والمقاطع والمواطن كانت متساوية وكان القوم قد شاركوا القوم فى السجية والمذهب فلذلك غلط من غلط فى النسبة وجعل الاب واحدا وهذا طريق الصواب عند المفتشين وسبيل البحث عند الباحثين والروم قفت فى لغتها ووضع كتبها اليونانيين فلم يصلوا الى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم والروم أنقص فى اللسان من اليونانيين وأضعف فى ترتيب الكلام الذى عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم (قال المسعودى) وقد ذكر أن يونان أخو قحطان وأنه من ولد عابر بن شالخ وأن أمره فى الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك فى الشركة فى النسب وانه خرج عن أرض اليمن فى جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته حتى وافى أقاصى بلاد المغرب فأقام هنالك وانسل فى تلك الديار واستعجم لسانه ووازى من كان هنالك فى اللغة الاعجمية من الافرنجة والروم فزالت نسبته وانقطع نسبه وصار منسيا فى ديار اليمن غير معروف عند النسابين منهم وكان يونان جبارا عظيما وسيما جسيما وكان حسن العقل والخلق جزل الرأى كثير الهمة عظيم القدر وقد كان يعقوب بن اسحاق الكندى يذهب فى نسب يونان الى ما ذكرنا من أنه أخ لقحطان ويحتج لذلك وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ فى قصيدة طويلة وذكر خلطه نسب يونان بقحطان فقال

أبا يوسف انى نظرت فلم أجد * على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عند قوم اذا امرؤ * بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
أتقرن الحادا بدين محمد * لقد جئت شيأ يا أخا كندة ادّا
وتخلط يونانا بقحطان ضلة * لعمرى لقد باعدت بينهما جدا

ولما نشأ ولد يونان وكبر خرج يسير فى الارض يطلب موضعا يسكنه فانتهى الى موضع من المغرب فنزل بمدينة أثيناوهى المعروفة بمدينة الحكماء فى ديار المغرب فى صدر الزمان وأقام بها هو ومن معه من ولده فكثر نسلهم بها وبنى بها البنيان العظيم الى أن أدركته الوفاة فجعل وصيته الى الاكبر من ولده واسمه حرينوس فقال له يا بنى انى قد وافيت الاجل وقربت من الحتم الواجب وانى راحل عنك ومفارقك ومفارق اخوتك وأهل بيتك وقد كانت أحوالكم حسنة النظام بى وكنت كهفا فى الشدائد وعونا على المحن ومجنا فى الزمان فعليك بالجود فانه قطب الملك ومفتاح السياسة وباب السيادة وكن حريصا على اقتناء الرجال بالانعام عليهم تكن سيدا رشيدا واياك والحيد عن الطريقة المثلى التى عليها بنى العقل فان من ترك رأى الاب وثمرة العقل تورط فى المهالك ووقع فى مقابض المتالف ثم مات يونان واستولى ولده حرينوس على مكان أبيه وضم اليه أهله وولده ونمى خبرهم وكثر نسلهم فغلبوا على ديار المغرب من بلاد الافرنجة والتوكير وأجناس الامم من الصقالبة وغيرهم وكان أول ملوكهم من سماه بطليموس فى كتابه فيلبش وتفسيره محب الفرس وقيل ان اسمه ملبص وقيل فيلفوس وكانت مدة ملكه سبع سنين وقد قيل ان اليونانيين لما أن صار البخت نصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف كانوا يؤدّون الطاعة ويحملون الخراج الى فارس وكان خراجهم بيضا من ذهب عددا معلوما ووزنا مفهوما وضربة محصورة فلما أن كان من أمر الاسكندر بن فيلبش وهو الملك الماضى الذى هو أول ملوك اليونانيين على ما ذكره بطليموس ما كان من ظهوره وهمته بعث اليه دارانوس ملك فارس وهو دارا بن دارا يطالبه بما جرى من الرسم فبعث اليه الاسكندر انى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض بيض الذهب وأكلتها فكان من حروبهم مادعا الاسكندر الى الخروج الى أرض الشام والعراق فاصطلم من كان بها من الملوك وقتل دارا بن دارا ملك الفرس ونسب قوم الاسكندر أنه الاسكندر بن فيلبش بن مصريم ابن هرمس بن هردوس بن ميطون بن رومى بن قوبط بن نوفيل بن رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح ونسبه قوم انه من ولد العيص بن اسحاق بن ابراهيم ومنهم من رأى أنه الاسكندر بن يونه بن سرحون بن رومى بن قرمط بن نوفيل بن رومى بن الاصفر بن اليغز بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم وقد تنازع الناس فيه فمنهم من رأى انه ذو القرنين ومنهم من رأى انه غيره وتنازعوا أيضا

فى ذى القرنين فمنهم من رأى انه انما سمى بذى القرنين لبلوغه باطراف الارض وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم ومنهم من رأى أنه من الملائكة وهذا قول يعزى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه والقول الاول لابن عباس فى تسمية الملك اياه ومنهم من رأى أنه كان بذ آبتين من الذهب وهذا قول يعزى الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وقد قيل غير ذلك وانما ذكرتنازع الشرعيين من أهل الكتب وقد ذكره تبع فى شعره وافتخر به وانه من قحطان وقيل ان بعض التبابعة غزا مدينة رومية فاسكنها خلقا من اليمن وأن ذا القرنين هو الاسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها والله أعلم وسار الاسكندر بعد أن مالك بلاد فارس فاحتوى على ملوكها وتزوج بابنة ملكها دارا ابن دارا بعد ان قتله ثم سار الى أرض السند والهند ووطئ ملوكها وحملت اليه الهدايا والخراج وحاربه ملكها فور وكان أعظم ملوك الهند وكان له معه حروب وقتله الاسكندر مبارزة ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبت فدانت له الملوك وحملت اليه الهدايا والضرائب وسار فى مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذل ملوكها ورتب الرجال والقواد فيما افتتح من الممالك ورتب بلاد التبت خلقا من رجاله وكذلك بلاد الصين وكور بخراسان كورا وبنى مدنا فى سائر أسفاره وكان معلمه ارسطاطاليس حكيم اليونانيين وهو صاحب كتاب المنطق ومابعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون وأفلاطون تلميذ سقراط وصرف هؤلاء همهم الى تقييد علوم الاسماء الطبيعية النفيسة وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالالهيات وأبانوا عن الاشياء وأقاموا البرهان على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها وسار الاسكندر راجعا من سفره يوم المغرب فلما سار الى مدينة شهرزور اشتدت علته وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة وقيل بالعراق فعهد الى صاحب جيشه وخليفته على عسكره بطليموس فلما مات الاسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الامم وكان يجمعهم ويستريح الى كلامهم ولا يصدر الامور الا عن رأيهم وجعل بعد أن مات فى تابوت من الذهب ورصع بالجوهر بعد ان طلى جسمه بالاطية الماسكة لاجزائه فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيا وللعامة واعظا وقام فوضع يده على التابوت فقال أصبح آسر الاسراء أسيرا ثم قام حكيم ثان فقال هذا الاسكندر الذى كان يحنى الذهب فصار الذهب يحنيه وقال الحكيم الثالث ما أزهد الناس فى هذا الجسد وأرغبهم فى هذا التابوت وقال الحكيم الرابع من أعجب العجب أن القوى قد غلب والضعفاء لاهون مغترون وقال الخامس ياذا الذى جعل أجله ضمانا وجعل أمله عيانا هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك هلا حققت من أملك الامتناع عن فوت أجلك وقال السادس أيها الساعى المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج فعودت عليك أوزاره وفارقت أيامه فغناه لغيرك ووباله

عليك وقال السابع قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك فمن كان له عقل فليعقل ومن كان مغترا فليغتر وقال الثامن رب هائب لك كان يغتابك من ورائك وهو اليوم بحضرتك لا يخافك وقال التاسع رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك اذ لا تتكلم وقال العاشر أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت وقال الحادى عشر وكان صاحب خزانة كتب الحكمة قد كنت تأمرنى أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك وقال الثانى عشر هذا اليوم عظيم المبر أقبل من شره ما كان مدبرا وأدبر من خيره ما كان مقبلا فمن كان باكيا على من زال ملكه فليبك وقال الثالث عشر يا عظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب وقال الرابع عشر يا من ضاقت عليه الارض طولا وعرضا ليت شعرى كيف حالك فيما احتوى عليك منها وقال الخامس عشر أعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام الهائد والهشيم البائد وقال السادس عشر أيها الجمع الحافل والملتقى الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغى والفساد وقال السابع عشر انظروا الى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى وقال الثامن عشر وكان من حكماء الهند يا من كان غضبه الموت هلا غضبت على الموت وقال التاسع عشر قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضى فليتعظ به الآن هذا الباقى وقال العشرون هذا الذى دار كثيرا والآن يقر طويلا وقال الحادى والعشرون ان الذى كانت الآذان تنصت له قد سكت فليت كلام الآن كل ساكت وقال الثانى والعشرون سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته وقال الثالث والعشرون مالك لا تقل عضوا من أعضائك وقد كنت تستقل ملك الارض بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذى أنت به وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد وقال الرابع والعشرون وكان من نساك الهند وحكمائها ان دنيا يكون هكذا آخرها فالزهد أولى أن يكون فى أولها وقال الخامس والعشرون وكان صاحب مائدته قد فرشت النمارق ونضدت الوسائد وهيئت الموائد ولا أرى عميد المجلس وقال السادس والعشرون وكان صاحب بيت ماله قد كنت تأمرنى بالجمع والادخار فالى من أدفع ذخائرك وقال السابع والعشرون وكان خازنا من خزانه هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أؤخذ بما أخذ منها وقال الثامن والعشرون هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت منها فى سبعة أشبار القول التاسع والعشرون قول زوجته روشنك بنت دارا بن دارا ملك فارس ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب وان كان هذا الكلام الذى سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شرابه فقد خلف الكأس الذى تشرب به الجماعة القول الثلاثون ما يحكى عن أمه أنها قالت حين جاءها نعيه لئن فقدت من

ابنى أمره فافقدت من قلبى ذكره وقبض الاسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة وقد كان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا وست سنين بعد قتله لدارا بن دارا وتملكه على سائر ملوك الارض وملك وهو ابن احدى وعشرين سنة وذلك بمقدونية وهى مصر وعهد الى ولى عهده بطلميوس بن أذينة أن يحمل تابوته الى والدته بالاسكندرية وأوصاه أن يكتب اليها اذا أتاها نعيه ان تتخذ وايمة وتنادى فى مملكتها ان لا يتخلف عنها أحد وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوبا أو مات له خليل ليكون ذلك مأتم الاسكندر بالسرور وخلاف مأتم الناس بالحزن فلما ورد نعيه اليها ووضع التابوت بين يديها نادت فى أهل مملكتها على ما به أمرها فلم يجب أحد دعوتها ولا بادر الى ندائها فقالت لحشمها ما بال الناس لم يجيبوا دعوتى فقالوا لها أنت منعتيهم من ذلك قالت وكيف قيل لها أمرت أن لا يجيبك من فقد محبوبا أو عدم خليلا أو فارق حبيبا وليس فيهم أحد الا وقد أصابه بعض ذلك فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سئلت وقالت لقد عزانى ولدى أحسن العزاء وقالت يا اسكندر ما أشبهه أواخرك بأوائلك وأمرت به فجعل فى تابوت من المرمر وطلى بالاطلية الماسكة لاجزائه وأخرجته عن الذهب لعلمها ان من يطأ بعدها من الملوك والامم لا يتركونه فى ذلك الذهب وجعل التابوت المرمر على أحجار نضدت وصخور نصبت من الرخام والمرمر قد رصفت وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الاسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة

ذكر ملوك السريانيين ولمع من أخبارهم

ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم ان أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان وقد تنوزع فيهم وفى النبط فمن الناس من رأى ان السريانيين هم النبط ومنهم من رأى انهم اخوة أولاد ماس بن نبيط ومنهم من رأى غير ذلك وكان أول من ملك منهم رجل يقال له سوسان وكان أول من وضع التاج على رأسه وانقادت له ملوك الارض وكان ملكه ست عشرة سنة باغيا فى الارض مفسدا للبلاد سفاكا للدماء ثم ملك ولده يقال له يرندس وكان ملكه الى ان هلك عشرين سنة ثم ملك سماسير بن أول سبع سنين ثم ملك بعده اهريور عشر سنين فخط الخطوط وكور الكور ووجد فى أمره واتقان ملكه وعمارة أرضه فلما استقامت له الاحوال وانتظم له الملك بلغ بعض ملوك الهند ما عليه ملوك السريانيين من القوة وشدة العمارة وانهم يحاولون الممالك وقد كان هذا الملك من ملوك الهند غالبا على ما حوله من ممالك الهند وانقادت الى سلطانه ودخلت فى أحكامه وقيل ان ملكه كان ما يلى السند والهند فسار نحو بلاد بسط وعمرين ونعير وبلاد الداور على النهر المعروف بنهرميد وهو نهر سجستان

ينتهي جريانه على أربعة فراسخ منها وهذا النهر عليه أهل سجستان وضياعهم ونخلهم وجبالهم ومتنزهاتهم وهذا النهر يعرف بنهر بسط وتجرى فيه السفن من هناك الى سجستان فيها الاقوات وغير ذلك ومن بسط الى سجستان نحو من مائة فرسخ وبلاد سجستان هي بلاد الرياح والرمال وهو البلد الموصوف بان الريح به تدير الارحية وتسقى الماء من الآبار وتسقى الجنان وليس فى الدنيا بلد والله أعلم أكثر منه استعمالا للرياح وقد تنوزع فى مبدأ هذا النهر المعروف بنهر مند فمن الناس من رأى ان مبدأه من مبدأ نهر الكنك وهو نهر الهند وهو كبير من جبال السند وهو نهر حاد الانصباب والجريان عليه يعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد وتغرقها زهدا فى هذا العالم ورغبة فى النقلة عنه وذلك انهم يقصدون موضعا فى أعالى هذا النهر المعروف بالكنك وهناك جبال عالية وأشجار عادية ورجال جاوس وحدايد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر وقطع من الخشب فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون فى ترهيدهم فى هذا العالم والترغيب فيما سواه فيطرحون أنفسهم من أعالى تلك الجبال العالية على تلك الاشجار العادية والسيوف والحدايد المنصوبة فيتقطعون قطعا ويصيرون الى هذا النهر أجزاء وما ذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك وهناك شجر من احدى عجائب العالم ونوادره والغرائب عمله فيظهر من الارض أغصان مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر والورق فتستقيم فى الجو كأبعد ما يكون من طوال النخل ثم ينحنى جميع ذلك منعكسا فيعود فى الارض مندسا ويهوى فى قعرها سفلا على المقدار الذى ارتفع به فى الهواء حتى يغيب عن الابصار ثم تظهر أغصان بادئة على حسب ما وصفنا فى الاول فتذهب اصعداء ثم تنقطر منعكسة ولا فرق بين المقدار الذى يذهب منها فى الهواء ويتسع فى الفضاء وبين ما يغيب منها تحت الارض ويتوارى تحت الثرى فلولا أن الهند قد وكلت بقطعه من يراعيه فى أمره لامر يذكرونه وخطر فى المستقبل يصفونه لطبق على تلك البلاد ولغشى تلك الارض ولهذا النوع من الشجر أخبار يطول ذكرها يعرفها من طرأ الى تلك البلاد ورآها أو نمى اليه خبرها والهند تعذب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب من دون الاهم وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها فى هذه الدار معجلا ومنهم من يصير الى باب الملك يستأذن فى احراقه نفسه فيدور فى الاسواق وقدامه الطبول والصنوج وعلى يديه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه وحوله أهله وقرابته وعلى رأسه اكليل من الريحان وقد شمر جلده عن رأسه وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس فيسيرو هامته ورائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل والتنبول فى بلادهم ورق ينبت كاصغر ما يكون من ورق الاترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبادلة مع الفوفل

وهو الذى غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن فى هذا الوقت مضغة بدلا من الطيب ويكون عند الصنادلة للورم وغير ذلك فنهم من يسميه الفوفل وهذا اذا مضغ على ماذكرنا بالورق والنورة شد اللثة وقوى عمود الاسنان وطيب النكهة وأزال الرطوبة المؤذية وشهى الطعام وبعث على الباه وحمر الاسنان حتى تكون كاحمر ما يكون من حب الرمان وأحدث فى النفس طربا وأريحية وقوى البدن وأثار من النكهة وروائح طيبة والهند خواصها وعوامها استقبح من أسنانه بياض وتجتنب من لا يمضغ ماوصفنا فاذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار فى الاسواق انتهى الى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير فى مشيته ولا متهيب فى خطوته ففيهم من اذا أشرف على النار وقد صارت جرا كالتل العظيم يتناول خنجرا ويدعى الحرمى عندهم فيضعه فى لبته ولقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من اللار من مملكة البلهرا وذلك فى سنة أربع وثلثمائة والملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الامصار ممن قد تأهل وقطن فى تلك البلاد وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى واسحاق الصيدابورى وعلى الهيرامة يومئذ أبو سعيد معروف بابن زكريا وتفسير الهيرامة يراد به رأسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة اليه ومعنى قولنا الياسرة يراد به من ولد وا من المسلمين بارض الهند يدعون بهذا الاسم واحدهم بيسر وجمعهم بياسرة فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ماوصفنا فى أسواقهم فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر فدفعها الى بعض اخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة ثم هوى بنفسه فى النار واذا مات الملك من ملوكهم وقتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته يدعون هؤلاء البلاحرية واحدهم بلاحرى وتفسير ذلك المصادق لمن يموت فيموت بموته ويحيا بحياته وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس من أنواع الآلام والمقاتل التى تألم عند ذكرها الابدان ويصفر من ذكرها الانسان وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم وأما خبر ملك الهند ومسيره الى بلاد سجستان وقصده مملكة السريانيين فكان هذا الملك من ملوك الهند يقال له زنبيل وكل ملك يلى هذا البلد من أرض الهند يسمى بهذا الاسم زنبيل الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان بين الهند وبين ملوك السريانيين حروب عظام نحوا من سنة فقتل ملك السريانيين واحتوى ملك الهند على الصقع وملك جميع مافيه فسار اليه بعض ملوك العرب فأتى عليه وملك العراق ورد ملك السريانيين فلكوا عليهم رجلا منهم يقال له سيرا وكان ولد المقتول فكان ملكه الى أن هلك ثمان سنين ثم ملك بعده (أهريون) وكان ملكه اثنتى عشرة سنة ثم ملك بعده ابن يقال له

(هوريا) فزاد فى العمارة وأحسن فى الرعاية وغرس الاشجار وكان ملكه الى أن هلك اثنتين وعشرين سنة ثم ملك بعده (مارث) واستولى على الملك وكان ملكه مدة خمس عشرة سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ثم ملك بعده (أزور) و (خلخياس) ويقال انهما كانا أخوين أحسنا السيرة وتعاضدا على الملك ويقال ان أحد هذين الملكين كان جالسا ذات يوم اذ نظر فى أعلى قصره الى طائر قد أفرخ هنالك واذا هو يضرب بجناحه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر الى حية تنساب الى الوكر صاعدة لاكل فراخ الطائر فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحه فى منقاره حبة وفى مخلابيه حبتان وجاء الى الملك وألقى ما كان فى منقاره ومخاليبه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدى الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى الا لأنه أراد بلا شك مكافأتنا على ما فعلنا به فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله فى اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر الى حيرة الملك فى الحب أيها الملك ينبغى أن يودع النبات أرحام الارض فانها تخرج كنه ما فيه فتقف على الغاية منه وأداء ما فى مخزونه ومكنونه فدعا بالاكرة وأمرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب وهم يرمقونه والملك يراعيه الى أن انتهى فى البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا أن يكون متلفا فأمر الملك بعصر مائه وأن يودع فى أوانى وافراد حب منه وتركه على حالته فلما صار فى الآنية عصيرا هدروقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة فقال الملك على بشيخ فأتى به فلما دله من ذلك فى إناء فرآه لونا عجيبا ومنظرا كاملا ولونا ياقوتيا أحمر وشعاعا نيرا ثم سقوا الشيخ فشرب ثلاثا حتى مال وأربى من مآزره الفضول وحرك رأسه ووقع برجليه على الارض فطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا ألا ترى الى الشيخ كيف عاد فى حال الصبى وسلطان الدم وقوة الشباب ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم ان الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته فكشف عنى الغموم وأزال عن ساحتى الاحزان والهموم وما أراد الطائر الا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا أشرف شراب أهل الارض وذلك أنه رأى شيخا قد حسن وقوى حيله وانبسط فى نفسه وطرب فى حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم وجاد هضمه وجاء النوم وصفا لونه واعتدله أريحية فأمر الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب فيه فان كان فلا يشربه غيرى فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نمى فى أيدى الناس واستعملوه وقد قيل ان نوحا أول من زرعها وقد ذكرنا الخبر حين سرقها ابليس منه حين خرج من السفينة واستوى على الجودى

(من كتاب مروج الذهب)

ذكر الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها وما ألحق بهذا الباب

ذكر جماعة من أهل العلم أن المقدونى لما استقام ملكه فى بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى الى موضع الاسكندرية فأصاب فيها أثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند (وهو القلم الاول من أقلام حمير وملوك عاد) أنا شداد بن عاد ابن شداد بن عاد شددت بساعدى البلاد وقطعت عظيم العماد من الجبال والاطواد وأنا بنيت ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أردت أن أبنى ههنا كارم وأنقل اليها كل ذى اقدام وكرم من جميع العشائر والامم وذلك اذ لا خوف ولا اهتمام ولا سقم فأصابنى ما أعجلنى وعما أردت قطعنى ومع وقوعه طال همى وشجنى وقل نومى وسكنى فارتحلت بالامس عن دارى لا لقهر ملك جبار ولا لخوف جيش جرار ولا عن رغبة ولا عن صغار لكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونضاد بصرى وشدة حذرى فلا يغتر بالدنيا بعدى فانها غرارة غدارة تأخذ منك ما تعطى وتسترجع ما تولى وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها ونزل الاسكندر يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث فحشر الصناع من البلاد وخط الاساس وجعل طولها وعرضها أميالا وحشد اليها العمد والرخام وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والاحجار من جزيرة صقلية وبلاد افريقيا واقريطس وأقاصى بحر الروم مما يلى مصب بحر أوقيانوس وحمل اليه أيضا من جزيرة رودس وهى جزيرة مقابلة للاسكندرية على ليلة منها فى البحر وهى أول بلاد الافرنجة وهذه الجزيرة فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة دار صناعة الروم وبها تنشأ المراكب الحربية وفيها خلق كثير من الروم ومراكبهم تطرق بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر فتغير وتأسر وتسبى وأمر الاسكندر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة وجعل على كل قطعة من الارض خشبة قائمة وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض وأوصل ذلك بعمود من الرخام وكان أمام مضربه وعلق على العمود جرسا عظيما صوتا وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره ذى طالع سعيد فخفق الاسكندر برأسه وأخذته سنة فى حال ارتقابه الوقت المحمود المأخوذ فيه الطالع فجاء غراب فجاس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال وخفق ما عليها من الاجراس الصغار وكان ذلك معمولا

بحركة فلسفيه وحيل حكميه فلما رأى الصناع تحرك تلك الجبال وسمعوا تلك الاصوات وضعوا الاساس دفعة واحدة وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر فأخبر بذلك فقال أردت أمرا وأراد الله غيره ويأبى الله الا ما يريد أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك اياها وان الاسكندر لما أحكم بنيانها وأثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان فقال الاسكندر حين أصبح هذا بدء الخراب في عمارتها وتحقق مراد البارئ في زوالها وتطير من فعل الدواب فلم يزل البناء يبنى في كل يوم ويحكم ويوكل به من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر فيصيحون وقد خرب البنيان فقلق الاسكندر وراعه ما رأى فأقبل يفكر ما الذي يصنع وأى حيلة يوقع في دفع هذه الاذية عن المدينة فسنحت له الحيلة في ليلته عند خلوته بنفسه وايراده الامور واصدارها فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمس وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الاطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء الى التابوت وقد جعل فيها مواضع للجبال ودخل الاسكندر في التابوت ورجلان معه من كتابه ممن له علم باتقان التصوير ومبالغة فيه وأمر أن تسد عليهم الابواب وأن يطلى من ذكرنا من الاطلية وأمر فأتى بمركبين عظيمين فأخرجا الى لجة البحر وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا اذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب في سفله وجعل التابوت الى المركبين وطول حباله فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر فاذا هم بشياطين على مثال الناس رؤسهم على مثال رؤس السباع وفي أيدى بعضهم القوس وفي أيدى بعض المناشير والمقامع يحاكون بذلك صناع المدينة والنعلة وما في أيديهم من آلات البناء فأثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور وأحكموها بالتصوير في القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم ثم جر ذلك الجبال فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الجبال وأخرجوا التابوت فلما خرج الاسكندر من التابوت وساروا الى مدينة الاسكندرية أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صوره الاسكندر وصاحباه فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر ثم أمرهم فبنوا فلما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات فنظرت الى صورها على العمد مقابلة على البحر فرجعت الى البحر ولم تعد بعد ذلك ثم لما بنيت الاسكندرية وشيدت أمر أن يكتب على أبوابها هذه الاسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور

ولم يرد البارى عز وجل ملك السموات والارض . ومقتنى الامم أن ينشيها كذلك فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها وأتانى الله من كل شئ علما وحكما ومهل لى وجود الاسباب فلم يتعذر على فى العالم شئ مما أردته ولا امتنع عنى شئ مما طلبته لطفا من الله عز وجل وصنعا بى وصلاحا لعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين لا اله الا هو رب كل شئ ورسم الاسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الاحداث بعده فى مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب وما يؤل اليه الى وقت دثور العالم وكان بناء الاسكندرية طبقات وتحتها قناطر مقنطرة كما تدور المدينة يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الازاج والقناطر التى تحت المدينة وقد عمل لتلك العقود والازاج مخاريق ومنفسات للضياء ومنافذ للهواء وقد كانت الاسكندرية تضئ بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شئ من المطر وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصول وربما علق على المدينة شقاق الحرير الاخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه فلما أحكم بناؤها وسكنها أهلها كانت آفات البحر وسكانه على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير ولما علم الاسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى المسال وهى باقية الى هذه الغاية كل واحد من هذه الاعمدة على هيئة السروة وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة وذلك عند انخناض درجة من درج الفلك وقربها من هذا العالم وعند أصحاب الطلسمات المنجمين والفلكيين أنه اذا ارتفع من الفلك درجة وانخفض أخرى فى مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تأتى فى هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والرافعة وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفى الكتب فى هذا المعنى ولهم فى ذلك سر من أسرار الفلك ليس كتابنا هذا موضعا له ولغيرهم ممن ذهب الى أن ذلك لاطف قوى الطبائع التام وغير ذلك مما قاله الناس ومما ذكرناه من درج الفلك فموجود فى كتب من تأخر من علماء المنجمين والفلكيين كأبى معشر البلخى والخوارزمى ومحمد بن كثير الفرغانى وما شاء الله وحسن واليزيدى ومحمد بن جابر البتانى فى زيجه الكبير وثابت بن قرة وغيرهم وهؤلاء ممن تكلم فى علوم هيأت الفلك والنجوم (قال المسعودى) وأما منارة الاسكندرية فذهب كثير من المصريين والاسكندريين ممن عنى باخبار بلدهم الى أن الاسكندر بن فيلبش المقدونى هو الذى بناها على حسب ما قدمنا فى بناء المدينة ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة هى التى بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها

وقد قدمنا ذكر هذا الملك فيما سلف من هذا الكتاب ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومية هو الذى بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته بالاستيلاء على كثير من ممالك العالم فشهرت به وذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة يدلوا بها على ما قالوا والاسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ولا هاب ملكا يرد اليه فى بلده ويغزوه فى داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا وأن الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره فيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك واذا علت فى الفلك أصبعه مشيرة نحوها فاذا انخفضت انخفضت يده سفلا يدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة فاذا دنى وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ويرمقونه بأبصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت فى الساعة التى قبلها وصوته مضطرب وقد كان ملك الروم فى مدة الوليد بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء وجاء مستأمنا الى بعض الثغور فورد بآلة حسنة ومعه جماعة فجاء الى الوليد فأخبره انه من خواص الملك وانه أراد قتله بموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وانه استوحش منه ورغب فى الاسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قلبه وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما رأى الوليد تلك الاموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك فسأله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال الارض وذلك ان الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام فبناها الازاج تحت الارض وقنطرها الاقباء والقناطر والمراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها ألف ذراع فى الهواء والمرآة على علوها والزيادة جالس حولها فاذا نظروا الى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا بمن قرب منهم ونصبوا وانشروا أعلاما فيراها من بعدهم فيحذر الناس وينذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة ففضح الناس من أهل الاسكندرية وغيرها وعلموا انها مكيدة وحيلة فى أمرها فلما علم الخادم استفاضة ذلك وانه سينمى الى الوليد وانه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده وواطى قوما على ذلك من أمره فتمت حيلته وبقيت المنارة على ما ذكرنا فى هذا الوقت

وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان حوالى منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر تتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر منه الكركهن والادرك وأشباه جشم ويقال ان ذلك من الآلات التى كان اتخذها الاسكندر للشراب فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجوهر وغرقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها الان من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا فى كل عصر فى معدنه برا كان أو بحرا فيكون الموضع على دوام الاوقات بالناس معمورا والاكثر مما يستخرج من الجوهر حول منارة الاسكندرية الاشباه جشم وقد رأيت كثيرا من أصحاب التلويحات ومن عنى باعمال الجواهر المشبهة بالمعدنية يعمل هذه الجواهر المعروفة بالاشباه جشم ويتخذ منه الفصول وغيرها وكذلك الفصوص المعروفة بالياقلون هى ترى ألوانا مختلفة من حمرة وصفرة تتلون فى المنظر ألوانا مختلفة على حسب ما قدمناه والتلون من ذلك على حسب الجوهر فى صفائه واختلاف نظر البصر فى ادراكه وتلون هذا النوع من الجوهر أعنى الياقلون نحو تلون ريش صدور الطواويس فانها تتلون ألوانا مختلفة أذنابها وأجنحتها أعنى الذكور دون الاناث وقد رأيت منها بارض الهند ألوانا تظهر بحس البصر عند تأملها الادرك ولا تحصى ولا تشبه بلون من الالوان لما يتراءى من تموج الالوان فى ريشها ويتأتى ذلك منها العظم خلقتها وكبر أجسامها وسعة ريشها الان الطواويس بارض الهند شأنا عجيبا والذى يحمل منها الى أرض الاسلام ويخرج عن أرض الهند فبيض ويفرخ تكون صغيرة الاجسام كدرة الالوان لا تخطف أنوارا الابصار بادراكها وانما تشبه بالهندية بالشبه اليسير هذا فى الذكور منها دون الاناث وذلك نحو النارنج والاترج المدور حمل من أرض الهند الى أرض غيرها بعد الثلثمائة فزرع بعمان ثم نقل الى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وأنطاكيه وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعرف ولا يعلم فعدمت منه الروائح الحرية الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بارض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لان ملك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملك مصر على الاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوهم الا أن من يدخلها يتيه فيها الا أن يكون عارفا للدخول والخروج فيها لكثرة طبقاتها وبيوتها وممارقها وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب ودخل جماعة منهم على غيولهم الى المنارة فتاهوا فيها وفيها طرق تؤول الى مهاوى تهوى الى السرطان الزجاج وفيها مخارق الى البحر فتهور وا بدوابهم وفقد منهم عدد عظيم وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهورهم كان فى كرسى بها قدامها وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه فى الصيف مطوعة

المصريين وغيرهم ولبلاد مصر والاسكندرية وبلاد الاندلس ورومية وما في الشرق واليمن والمغرب أخبار كثيرة في عجائب البلدان والابنية والآثار وخواص البقاع وما يؤثر في سكانها وقطانها أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على الاخبار منها فيما سلف من كتبنا من عجائب العالم من دوابه وبره وبحره فاغنى ذلك عن اعادة ذكره

فصل في الكلام على بلاد اليونان ومقدونيا والشام ومصر بعد اضمحلال القرطاجيين وانحطاط دولتهم

الذي يخطر بالبال أن أنيبال كان من دأبه أن لا يتكلم بالنوادر والحكم الا قليلا جدا فكان كلامه بها أندر من الكبريت الاحمر لا سيما ما حكاه عنه بتليوة في شأن فبيوس ومرسليوس أو مرقليوس مما يعود عليه بالضرر وعلى أخصامه بالنفع فيا ليت هذا المؤرخ لم يزين ما وقع بين أبطال ذلك الزمن القديم ولم ينسب لهم من الحكم والنوادر ما هو من قبيل المخايل والظواهر وما أحسنه لو سلك في تاريخه مسلك أوميروس الذي أهمل تزيين حوادث فحول الرجال وأحسن ذكر وقائعهم بما يوقف القارئ على حقيقة الحال وعلى فرض أن أنيبال كان يصدر عنه مثل ذلك فهل يعد من الكلام المعقول المستحسن فان قيل نعم قلنا قد حكي عنه أنه لما بلغه هزيمة أخيه استروبال أقر بانه يلمح من خلال هذه الواقعة دمار قرطاجه فهل ثم شئ أدعى من ذلك لايقاع اليأس عند الاهالي الواثقين به وهل هنالك ما تفتر به همة الجيش القرطاجي الذي كان ينتظر مكافآت عظيمة بعد هذا الحرب أقوى من ذلك

ولما كان القرطاجيون في اسبانيا وصقلية وسردينيا لا يعرضون لحرابة الرومانيين جيشا الا انهزم وساء حاله وخابت آماله اضطر أنيبال حيث كان أعداؤه دائما يتقوون بالاسعافات والامدادات الى أن لا يكون حربه في ايطاليا الا لمجرد المدافعة فعند ذلك عن للرومانيين أن ينقلوا ميدان الحرب الى بلاد افريقه فرساسيون بالجيش الروماني على سواحلها وظفر بالقرطاجيين ظفرا جبرهم على أن يدعوا أنيبال من بلاد ايطاليا فلحق هذا القائد من الحنق والاسف ما لا مزيد عليه حيث أفضى به الحال الى ترك ما تغلب عليه من تلك البلاد للرومانيين الذين طالما انتصر عليهم فيها

وقد أبدى أنيبال في محاماة وطنه ما لا مزيد عليه لمن انتهت اليه الرياسة في السياسة الملكية والامارة في القيادة العسكرية وذلك انه لما تعذر عليه أن يحمل سبيون على الصلح حمل عليه حملة عظيمة الا أن الدهر الخؤون لعب به حيث أوقع الخلل في أفعاله وأنساه تجربته وسلب منه بسلامة ذوقه

فعند ذلك أذعن القرطاجيون لما كلفهم به الرومانيون من شروط الصلح الصادر من متبوع لتابعه لا من عدو لعدوه وذلك أن قرطاجة التزمت أن تدفع للرومانيين عشرة آلاف تالان (نوع من أنواع المعاملة) منجمة على خمسين سنة وأن تعطي على ذلك كفالات من الاهالي وأن تسلم اليهم سفنها وتياتها الحربية وأن لا تقدم على محاربة أحد الا بعد رضائهم ولاجل ابقائها على الهوان والمذلة وضعف الشوكة وسع الرومانيون دائرة شوكة مسينيسة ملك نوميديا التي هي الآن بلاد الجزائر لانه كان أكبر أعدائها

ثم انه بعد انحطاط دولة قرطاجة واضمحلالها كاد أن لا يكون للرومانيين الا حروب صغيرة ونصرات عظيمة على عكس ما كانوا عليه قبل ذلك

وكأنما كانت الدنيا في تلك الازمنة أرضين منعزلتين احداهما كانت ميدانا لحروب الرومانيين والقرطاجيين والاخرى كانت ميدانا للمشاجرات والمنازعات التي استمرت بها من موت اسكندر الرومي ولم يلتفت أهلها الى ما كان يقع في الاولى التي هي بلاد المغرب من الحروب والمشاجرات حتى لم يذكره مشاهير مؤرخيهم نعم وان وقعت المشارطة بين فيليبش ملك مقدونيا وأنيبال قائد القرطاجيين الا أنه لم يعقب هذه المشارطة شئ وحيث لم يعن هذا الملك القرطاجيين الا اعانة هينة لم يظهر للرومانيين منه الا مجرد مخالفتهم لا يترتب عليها ضرر

هذا ومن أقبح السياسات أن تنظر دولة من الدول دولتين عظيمتين بينهما حرب طويل شديد وكل منهما لدد الخصام كثير العناد وتمكث مطمئنة متفرجة عليهما بدون أن تجعل لنفسها مدخلية بينهما بصلح أو حرب لان الدولة التي تظفر بصاحبتها تتصدى في مبدأ أمرها الى حروب جديدة ثم تصير أمة عسكرية تهجم على أمم أرباب حضارة لا معرفة لهم بالفنون العسكرية

وقد تحقق ذلك في تلك الازمنة على وجه ظاهر فان الرومانيين بمجرد غلبتهم للقرطاجيين وظفرهم بهم شنوا الغارة على أمم أخرى وانتشرت أعلامهم في سائر الاقطار للتغلب عليها

ولم يكن اذ ذاك في المشرق من يقدر على مقاومتهم الا أربع دول اليونان ومقدونيا والشام ومصر ولنذكر أحوال الدولتين الاوليين وقتئذ حيث تصدى الرومانيون للاستيلاء عليهما قبل الاخريين فنقول

كان ببلاد اليونان ثلاث أمم عظيمة ذات شوكة وهم الايثوليون والاخائيون واليوثيانيون وكانت كل واحدة منها جمهورية متجمعة من اتحاد مدن حرة متعاهدة ذات مشورات عمومية وحكام مشتركة أرباب حل وعقد فأما الايثوليون فكانوا أرباب شجاعة وجراءة ومخاطرة وحرص على الكسب وكان من دأبهم أنهم ليسوا أسراء الوفاء بالوعد ولا من أهل التمسك بالعهد

وكانت محاربتهم في البر على منوال ما يفعله ارباب الصيال في البحر وأما الاخائيون فانهم لما كانوا بجوارهم أو تحت حمايتهم كانوا لا يذوقون منهم طعم الراحة أصلا وأما اليوثيانيون فكانوا أقل أمم اليونان نشاطا وهمة وكانوا دونهم في المدخلية في الحوادث العامة لجميع اليونان وكان لا يبعثهم على الحركة الا ما يقومهم من الوجدانيات الضرورية الراهنة من خير أو شر فكانت قرائحهم جامدة بحيث لا يؤثر فيها وعظ الوعاظ ولا تحريض الخطباء على الدخول مع غيرهم في المصالح العامة هذا من الغريب الخارج عن حد العادة بقاء جمهوريتهم وعدم زوالها مع ما كان فيها من اختلال الحكومة (مثلا كان رؤساء تلك الجمهورية لا يقدمون المجالس تطييبا لخاطر الاهالي وكان المرضى يوصون بأموالهم لاصحابهم لينتفعوا بها بعدهم في الولائم ولا يتركونهم المصلحة الجمهورية) وأما القدمونيه فانها حفظت شوكتها بمعنى أنها لم تزل باقية على التولع بالحرب الذي اكتسبته من قوانين لكورغة وكان أهالي سالونيكي مستعبدين من بعض الوجوه لاهل مقدونيا وكذلك ملوك ايليريه وهي الارناؤط الساحلية كان الرومانيون قد أضعفوهم اذ ذاك بالكلية وأمم الاقرنانة والاتمانة كانت جنود مقدونيا وايثولية قد خربت بلادهم على التعاقب وكان الايتنيون لا قوة لهم ولا ناصر (حيث لم يكن لهم عقد معاهدة مع غيرهم من أمم اليونان) وانقطعت أفعالهم العجيبة ولم يكن عندهم وقتئذ الا مجرد المداهنة والتملق للملوك وكانوا لا يرقون كالسابق المنابر التي خطب عليها ديمستينس الا التحريض الاهالي على احكام مبنية على غاية الجبن ونهاية الهذيان

ومع ذلك فكانت بلاد اليونان مهابة بقوتها وقوتها وكثرة مدنها وجنودها وبسياستها اضبطا وربطا وأخلاق أهلها وعوائدهم وقوانينهم فكانت تحب الحرب حبا جما وتعرف فنه حق المعرفة ولو انضمت الى بعضها واتفقت كلمتها لما أمكن غلبتها والظهور عليها أو ليس أن ملوك مقدونيا كفيليبش الاول واسكندر الرومي وانطباطير غزوهم ولم يسترعوهم وانما أوقعوهم في الحيرة والدهشة لما شاهدوه منهم من القوة وشدة البأس فلما رأى هؤلاء الملوك انه لا اقتدار لهم على الظفر بهم وأبت أنفسهم أن يتركوا ما تطلبوه وأملوه صمموا على أن يشتغلوا دائما بالبحث عن استعبادهم وأما مملكة مقدونيا فكان أغلبها يكتنفه جبال وعرة لا يمكن التوصل منها وكان لاهلها استعداد وصلاحية تامة للحرب لشجاعتهم وقوة قلوبهم وانقيادهم لرؤسائهم ومهارتهم في الفنون والصنائع وعدم ملالهم ولا غرو في اتصافهم بتلك الصفات العظيمة لما أن طبيعة قطرهم واعتدال هواء بلادهم يقتضيان ذلك اذ هم الى الآن أعظم عساكر الدولة العثمانيه

وانما بقيت دولة اليونان ولم تنقرض لوجود ما يمنع من ذلك وهو ما كان حاصلا بوسطة من ميزان التعادل بين الممالك فان المقدونيين كانوا عادة حلفاء للايثوليين وكان المقدونيون حلفاء للاخائيين الا أن قدوم الرومانيين الى بلادهم كان سببا في نقض هذه الموازنة وابطالها

ولما كان لا يمكن للملوك مقدونيا أن يقوموا بلوازم عدد كثير من العساكر كان أدنى هزيمة لهم يعقبها ضرر وزيادة على ذلك كان لا يمكنهم توسيع مملكتهم الامع غاية المشقة وذلك لان مقاصدهم لما كانت لا تخفى على أحد كان أغلب الدول يراقبهم ويلاحظ سلوكهم ليكون على حذر منهم وأما نصراتهم التى انتصروها فى الحروب التى تصدوا فيها لاعانة معاهديهم فكانت فى الحقيقة داء يبحث خلفاؤهم عن مداواته

ولكن كان هؤلاء الملوك عادة أرباب ذكاء ودهاء ولم تكن مملكتهم منظومة فى سلك الممالك التى تجد السير فى سبيل المصالح حتى تثبت فى أقرب وقت بل كانوا دائما يكتسبون التجربة والخبرة من ممارسة الاخطار والمصالح وكانوا دائما يقعون فى ورطات المشاجرات الواقعة بين أمم اليونان فبهذا لزمهم أن يستميلوا اليهم كبار المدن اليونانية ويستجلبوا أهاليها وكانوا بمقتضيات الاحوال يجمعون الاغراض أو يفرقونها وبالجملة فكانوا مضطرين فى كل وقت لبذل مهجهم والمفاداة بانفسهم

وقد كان فيليبش فى مبدأ أمره يستميل قلوب اليونان اليه ويستجلب صداقتهم له بلين عريكته وسهولة أخلاقه ثم تغير دفعة واحدة فصار جبارا طاغية فى زمن كانت مطامعه وسياسته يقتضيان أن يسلك فيه مسالك العدل والانصاف وكان يلمح ولو من بعد عظم شوكة القرطاجيين والرومانيين وكان قد انهى الحرب على وجه عاد بالنفع على حلفائه وتصالح مع الايثوليين فكان الاولى له عقب ذلك أن يسعى فى جمع بلاد اليونان بتمامها ويتعاهد معهم ليمنع الاجانب من الاستيطان بها لكن كان الامر بالعكس لانه أغضبهم ونفر نفوسهم منه باغتصابه منهم حقوقا واهية وتلاعب بالبحث عن أغراض قليلة الجدوى حين كان الاهم له أن يبحث عن ابقاء نفسه وحفظ ملكه حتى آل أمره أن صار مبغوضا بالكلية عند جميع اليونان لكونه صدر عنه ثلاثة فعال قبيحة أو أربعة

وكان أشدهم حنقا عليه الايثوليين فلما علم الرومانيون شدة حقدهم التى ليست فى الواقع الا ضربا من الجنون انتهزوا هذه الفرصة وتحالفوا معهم فدخلوا بلاد اليونان وحرضوا أهاليها على القيام عليه والخروج عن طاعته فشهروا السلاح وتأهبوا لقتاله

فكانت لهم النصرة عليه فى يوم (قينوسفالة) وكان مدارها على شجاعة الايثوليين فلحقه من الهوان والذل ما ألجأه الى عقد مشارطة ليست فى الحقيقة مشارطة صلح وانما هى عقد تخلى به عن قوته وذلك انه بموجبها أخرج عساكره المحافظين من جميع بلاد اليونان وسلم لهم فى سفنه الحربية والتزم أن يدفع لهم ألف تالان منجمة على عشر سنوات

هذا وقد قابل المؤرخ بوليبه مع ما انطبع عليه من سلامة الذوق بين ترتيب الرومانيين وترتيب المقدونيين الذى تمسك به جميع من خلف اسكندر من ملوك الطوائف فبين منافع ومضار الفرق

العسكرية الرومانية والمقدونية ورجح جانب الترتيب الروماني ومن تأمل وقائع تلك الازمنة ترا آى له أنه مصيب فى ذلك

وما حصل للرومانيين فى الحرب البونيقى الثانى من الوقوع فى الخطر فماذاك الا لكون أنيبال سلح عساكره فى مبدأ الامر على منوال الرومانيين بخلاف اليونان فانهم فى حربهم مع الرومانيين لم يغيروا أسلحتهم ولا أسلوب حربهم ولم يخطر لهم أن يتركوا أساليبهم التى بسلوكها فعلوا قبل ذلك أشياء جسيمة واكتسبوا نصرات عظيمة

وكان نجاح الرومانيين فى حربهم مع فيليبش أعظم نجاح اكتسبوه فى جميع فتوحاتهم فانهم لاجل التمكن والوثوق بفتح بلاد اليونان سلكوا جميع الطرق فى خفض الايثوليين الذين أعانوهم على فتحها وأمروا أن كل مدينة من مدن اليونان سواء كانت من حكومة فيليبش أو غيره من الملوك تحكم نفسها من الآن فصاعدا بقوانينها الخاصة بها

هذا ومن الجلى أن تلك الجمهوريات الصغيرة اليونانية لا يمكن أن تكون الا تابعة غير أن اليونان فرحوا باجراء حكومتهم على قوانينهم الخاصة بهم فرحا لا يصدر الا عن غبى أحمق ظنا منهم أنهم صاروا أحرارا حيث أظهر لهم الرومانيون ذلك

فالايثوليون الذين ظنوا فى مبدأ الامر أن تكون لهم الكلمة فى بلاد اليونان لما رأوا سعيهم لم يترتب عليه الا دخولهم تحت طاعة الرومانيين حيث صاروا مواليهم داخلهم اليأس والقنوط ولما كان من دأبهم الافراط والبدء بالنهاية أرادوا مداومة البلبلة بجنون آخر فدعوا انطيوكوس ملك الشام الى بلاد اليونان كما دعوا الرومانيين اليها قبل ذلك

وكان ملوك الشام اذ ذاك أقوى ملوك الطوائف الذين هم خلفاء اسكندر لانهم كانوا يحكمون على أغلب ممالك دارا ماعدا بلاد مصر غير أنه طرأ عليهم من الحوادث ما أفضى بشوكتهم الى الضعف

وذلك أن الملك سيلوقوس مؤسس سلطنة الشام دهر فى أواخر أيامه مملكة ليزيماقيا أى جزيرة كابيولى المتصلة وخرج عن طاعته عدة أقاليم فى أثناء هذا الاختلال تكون منها مملكة برغامة (ازمير) ومملكة قبادروقيه ومملكة بيكستجيل باناطولى واستقلت بنفسها ولكن لما كانت تلك الممالك الصغيرة غير مطمئنة على استقلالها كانت دائما ترى أن ما يقع لسادتها الاول من الاذلال هو عين عزها وسعدها

ولما كان ملوك الشام دائما يتطرون عز مملكة مصر بعين الحقد والحسد كان مطمح نظرهم دائما التغلب عليها فنشأ عن ذلك اهمالهم جهة المشرق فلذلك فقدوا فيها عدة أقاليم وصار الاذعان لهم هينا فى أقاليم أخرى

فآل الامر أن بقي لهم آسيا العليا والسفلى . الا أنه قد ظهر بالتجربة أنه في هذه الحالة اذا كان تخت المملكة والقوى الاصلية في الاقاليم السفلى من آسيا تعذر على الملك حفظ الاقاليم العليا وابقاؤها وكذلك اذا كان التخت في آسيا العليا وأراد حفظ الاقاليم السفلى فانه يعجز عن ذلك وتضعف قوته ويدلك عليه أن كلا من مملكتي فارس والشام لم تضاه في القوة أصلا مملكة البرث الذين هم قدماء الفرس مع أنهم لم تكن الاجزأ من أقاليم هاتين المملكتين فلو لم يفتح ملكهم قيروس مملكة ليديا باناطولي لما قهره اليونان وتغلبوا على مملكته وكذلك لو اقتصر سيلوقوس ملك الشام على بابل وترك الاقاليم البحرية لخلفاء انطيفونة ملك يهوده لما ظهر الرومانيون عليه واستولوا على بلاده وقد اقتضت الحكمة الالهية أن يكون للممالك حدود طبيعية تمنع الملوك عن التعدي على بعضهم وتمسك بأعنة أطماعهم فلما تجاوزها الرومانيون أهلكهم البرث وبددوا شملهم ولما تجاوزها البرث أنفسهم اضطروا من مبدأ الامر الى الرجوع الى أراضيهم وكذلك آل عثمان في الاعصر الاخيرة فانهم لما تجاوزوا تلك الحدود أكرهوا على الرجوع اليها وكان رعايا ملوك الشام ومصر اذذاك على قسمين الامم الغالبة أي الفاتحة والامم المغلوبة أي المستولى عليها وكان الملوك لا يحكمون الامم الفاتحة الا مع غاية المشقة لانهم كانوا لم يزالوا يتذكرون أصولهم ولم يكن عندهم ميل الى الحرية كالافرنج الآن يحملهم على الخروج من الاسر والاستعباد وانما كانوا مثلهم في الميل الى تغيير الملك ولا صبر لهم على بقائه

ولكن اصالة ضعف مملكة الشام انما حدثت عن ضعف ديوان خلفاء دارا لا خلفاء اسكندر وذلك ان ما كان بدواوين ملوك آسيا على اختلاف القرون من الزينة والاختيال والتكبر والرخاوة كان متسلطا في ديوان هؤلاء الخلفاء وسرى هذا الداء الى الاهالي والعساكر بل سرت العدوى به الى الرومانيين أنفسهم حيث ان الحرب الذي وقع بينهم وبين انطيوكوس ملك الشام كان في الحقيقة مبدأ فساد حالهم واختلال نظامهم

فهذا ما كانت عليه مملكة الشام حين تصدى الملك انطيوكوس الذي فعل أشياء كثيرة للحرب مع الرومانيين ولم يسلك في حربه معهم سبيل الحزم والتؤدة التي ينبغي سلوكها في المصالح العادية مثلا لما أراد انيبال تجديد الحرب بايطاليا سعى في استمالة فيليبش ملك مقدونيا ليكون معه على عدوه أو يرفع يده بحيث يكون لا له ولا عليه بخلاف انطيوكوس فلم يفعل شيأ من ذلك بل دخل بلاد اليونان في قليل من جنوده فكان أتى متفرجا لا محاربا حيث لم يشتغل الا بحفظ نفسه فانهزم وفر الى آسيا وكان فزعه أقوى من هزيمته

فبذل الرومانيون جهدهم في استمالة فيليبش اليهم في هذا الحرب وأدخلوه في حزبهم بالكلية فبذل جميع وسعه في خدمتهم واعانتهم وكان عليه مدار نصراتهم في الحرب المذكور وكان الحامل له على

ذلك هو حب الانتقام من الايثوبيين وتخريب مملكتهم ووعد الرومانيين اياه بتنقيص ما كان لهم عليه من الخراج وباعطائه بعض مدن وغيرته من انطيوكوس وغير ذلك من الاسباب الواهية وذلك لعلمه أنه لا سبيل الى الخروج من ربقة الاسر فسعى فيما يكون به التلطيف والتخفيف عليه

وأما انطيوكوس فلم يتبصر في عواقب هذه الحوادث حيث ظن أن الرومانيين يقرونه على ما كان عليه ببلاد آسيا آمنا مطمئنا فكان الامر بالعكس حيث اقتفوا أثره حتى انهزم هزيمة أخرى وأفضت به شدة الخوف والفزع الى الرضاء بشارطة كانت أشد عارا عليه ولم يسبق مثلها لمثله

ولا أعلم في التاريخ شرف نفس أعظم مما صمم عليه بعض ملوك عصرنا (وهو الملك لويز الرابع عشر) حيث آثر أن يدفن تحت ردم كرسي مملكه على أن يرضى بشروط لا تليق أن تطرق آذان ملك من الملوك فكان يجل شرف نفسه وعلو شأنه عن أن يتدانى أكثر مما ألجأته اليه نكبانه وكان يعرف حق المعرفة أن ثبات الملك ودوامه انما يكون بالشجاعة والتجلد لا بما يوجب المعرة والمذلة

وكثيرا ما ترى ملوكا يعرفون الحمل على العدو ولكن قليل منهم من يحسن عمل الحرب ويدير الغزو والجهاد بأن يكون له اقتدار على انتهاز فرصة الظفر عند حصولها وعلى توقعها في أثناء الشروع ويكون عنده الحالتان على حد سواء وقل من يكون قبل الشروع غير واثق من نفسه بالنجاح فاذا شرع في الحرب ذهب تردده وثبت قدمه

ولم يبق لانطيوكوس بعد انحطاط دولته وضعف شوكته الا ممالك صغيرة ما عدا مملكة مصر فانها لحسن موقعها وجودة خصوبتها واتساع دائرة تجارتها وكثرة أهلها وقواها البحرية والبرية كانت قابلة لان تكون ذات شوكة ومهابة الا أن قسوة ملوكها وجبنهم وبخلهم وحمقهم وانهماكهم على الشهوات الذميمة كل ذلك أوجب بغضتهم عند الرعايا حتى كانوا في أغلب الاوقات لا يثبتون على كرسي المملكة الا بحماية الرومانيين واعانتهم

وكان من قوانين الحكومة المصرية في الجملة أن البنات يشركن اخوتهن في ولاية العهد على المملكة ولاجل حفظ وحدة الحكومة كانوا يزوجون الاخ أخته فمن هذا كان لا أضر على المملكة من قانون ولاية العهد فان أقل مشاجرة منزلية وقعت بين الملك والملكة من جهة الزوجية كانت مصدرا لوقوع الخلل في الحكومة فكان اذا لحق أحدهما أدنى غيظ من الآخر حرض عليه أهل اسكندرية وهم أمة أخلاط كثيرة الاهالي مستعدة دائما الى الانضمام الى أول من يريد منهما الفتنة والهرج وأيضا كانت مملكتا القيروان وقبرص في العادة بين يدي ملوك أخر من عائلة ملوك مصر وكان لهم حق الاشتراك في الحكومة المصرية كما أن ملوك مصر كان لهم حق الاشتراك معهم

فى بلادهم فلذا كان يوجد غالبا فى مصر ملوك متوليـة بالفعل وآخرون يطلبون الاستيلاء عليها فبذلك كان ملوكها دائما فى الاضطراب وعدم الثبات ولما كانوا بهذه المثابة فى داخل مملكتهم كان لاشوكة لهم فى خارجها

وكانت قوى ملوك مصر كقوى ملوك أخر من اسيا مقصورة على الاعانات اليونانية وكان اليونان زيادة على مافيهم من الميل الى الحرية وشرف العرض وحب الفخار لهم دائما والتولع برياضات البدن على اختلاف أنواعها فكنت ترى فى أمهات مدائنهم ألعابا قائما سوقها وكان من يظهر فيها على قرينه يوضع على رأسه تاج فى المحفل الحافل باليونان فكان يتولد من ذلك بينهم منافسة عامة فلذا كان فى مثل هذا الزمن الذى كان الحرب فيه باسلحة نجاحها على حسب قوة المحارب وخفة حركته لايمكن أن يشك فى أن مستعمليها وهم اليونان يظفرون بالعدد الكثير من عساكر الامم المتبربرة المأخوذة كيف مااتفق والمبعوثة الى الحرب بدون انتخاب ودليل ذلك ماظهر من عساكر دارا

ثم ان الرومانيين لاجل أن يجردوا هؤلاء الملوك عن مثل هؤلاء العساكر اليونانية وعن قوتهم الاصلية من غير أن يشعروا بذلك صنعوا شيئين أحدهما هو أنهم رتبوا بالتدريج قانونا لليونان مضمونه أن لايسوغ لهم أن يعقدوا معاهدة مع أى أمة من الامم أو يعدوها أو يحاربوها الا بعد استئذانهم ورضاهم ثانيهما هو أنهم فى مشارطاتهم مع الملوك منعوهم أن يجمعوا عساكر من معاهديهم أى الرومانيين فبذلك أفضى بهم الامر الى أن اقتصروا على عساكرهم الاهلية (وهذه البوليتيقه هى نظير ماوقع منهم قبل ذلك فى مشارطتهم مع القرطاجيين حيث ألزموهم أن لايستمدوا بعساكر أجنبية بل يقتصروا على عساكرهم الاهلية)

فصل فى ذكر طيبار يوس

كما أن البحر يأكل بالبطء مايعترضه كالجسور من غير دوى ولاصرير ثم يقطعها بغتة ويفيض على الفلوات التى كانت تحجزه عنها الجسور كذلك شوكة الحكم فى مدة أغسطوس كانت تعمل عملها بدون شعور بها وفى زمن طيبار يوس ظهرت كل الظهور وأفسدت كل شئ مع العنفوان والشدة فقد كان فى زمنه قانون ملوكى يعاقب كل من يسئ الامة الرومانية فتمسك به طيبار يوس ولم يستعمله فيما وضع لاجله بل فى كل مايلايم كراهته للامة وعدم وثوقه بها فلم يكن العقاب فى هذا القانون مقصورا على الاساءة بالفعل فقط بل وبالقول والاشارة وحديث النفس أيضا لان مايحصل فى الفؤاد وينطق به اللسان فى المسامرة والمفاكهة بين صاحبين ليس الاحديثا نفسيا وبذلك فقدت الحرية فى الولايم وانعدم الوثوق من بين الاقارب والصداقة من الارقاء وأمسك الامير

عن المخالطة والبشاشة فلهذا صارت المحبة نخطرة وعدالبله من عدم الاحتراس وقلة الحزم وصارت الفضيلة تصنعا تستحضر به الامة سعادة الازمان السالفة

وليس فى الدنيا ظلم أعظم مما يستند فيه الى مخايل القوانين وظواهر الشرائع فهو كما اذا ذهب انسان الى من تخلص من الغرق وأغرقه على الخشبة التى كانت واسطة فى نجاته

وحيث لم يتفق أبدا أن طاغية تخلا عن آلات وأدوات يستعين بها على ظلمه وطغيانه وجد طيباريوس دائما قضاة لا يتوقفون فى الحكم بالعقاب على كل من حصل فيه الشك والارتياب مع كثرة عدد من اتهم بذلك وفى زمن الجمهورية حيث كان مشورة السنت لا تحكم فى خصومات الآحاد كانت تعرف بواسطة وكلاء الاهالى الجنايات التى كانت تقع من المتعاهدين فأحال عليها طيباريوس الحكم فيما يسمى جناية الخوض فى الشوكة الملوكية يعنى فى حقه وقد سقطت هذه الجمعية الى حضيض الدناءة وبلغت من ذلك ما لا يمكن التعبير عنه وصار أربابها يتسابقون الى العبودية والمذلة حتى ان أعظمهم لاجل الحظوة عند سيجان الذى كان من أخصاء طيباريوس كان يسعى بالوشى والنميمة بين الامبراطور والاهالى

ويظهر لى أن هنالك أسبابا تميل الى الاستعباد المستولى على أرباب مشورة السنت فى ذلك الوقت وذلك ان قيصر بعد أن ظهر على غرض الجمهورية تسابق جميع أحبابه وأعدائه من أعضاء تلك المشورة الى توسيع دائرة شوكته والتساهل فى القوانين ومنحته خصائص وتشريفات متجاوزة الحد فمنهم من كان يبغى بذلك الحظوة عنده ومنهم من كان يريد كراهة الامة له فقد ذكر المؤرخ ديون أن بعضهم بالغ فى ترخيصه وتصرفه حتى عرض للجمعية أن ترخص لقيصر التمتع بكل من أعجبته من النساء فترتب على ذلك أنه لم يأخذ حذره من جمعية السنت فقتل فى هذه المشورة أشر قتلة ولكن كانت عاقبة ذلك أن التملق صار داء معديا غير منفر للنفوس

وكذلك قبل أن تحكم رومة بحاكم واحد كانت أموال أعيان الرومانيين لا تحصى بقطع النظر عن طرق تحصيلها وكسبها فلما كان زمن الامبراطرة ذهب أغلبها من أيديهم وفقد أرباب مشورة السنت هؤلاء الاعيان الذين كانوا ملجأ لهم يواسونهم بالاموال وقل أن أمكن أخذ شئ من الاقاليم الا لقيصر لا سيما حين أقام بها وكلاء تحصيل هم أشبه برؤساء الحسابات فى عصرنا هذا لكنه وان كان قد انسد على أهل جمعية السنت منبع الايراد الا أن المصاريف لم تزل لازمة لهم فقد صاروا فى حالة من العيش لا يقدرون على البقاء عليها الا باحسان الامبراطور

وكذلك سلب أغسطوس من الامة الرومانية حق التشريع وتقنين القوانين وحق الحكم فى الجنايات العامة الاهلية وانما أبقى لها ولو فى الظاهر انتخاب أرباب الحكم والقضاء وأما

طيبار يوس الذى كان يخشى من جمعيات الاهالى الكثيرة فسلب منها أيضا حق الانتخاب ومنحه لجمعية السنت أى لنفسه ولا يخفى أن انحطاط قوة الامة بهذه المثابة أورث نفوس الاعيان المذلة والهوان وذلك أنه حين كانت الامة تتصرف فى المناصب وتمنحها الارباب الاقضية والاحكام كان هؤلاء الحكام المتقلدون بالمناصب المذكورة يتنازلون كثيرا ويرتكبون الدناءة ولكن كانوا يضيفون الى ذلك نوعا من الظهور يغطى هذا العيب اما بكونهم يعملون أفراحا أو ولائم للاهالى أو يفرقون عليهم مقادير من المال أو الغلال ومع أن الاصل الموجب لذلك دنى الا أن وسيلة الاعطاء والانعام منهم لا تخلو عن شئ من علو الهمة لانه يليق دائما بالرجل العظيم استمالة الناس اليه بالبذل والكرم ولكن لما سلبت وظيفة تقليد مناصب الاقضية والاحكام من أيدى الامة وصار الامبراطور بواسطة جمعية السنت هو الذى يقلد تلك المناصب صار الاعيان يسلكون فى طلبها وتحصيلها طرق الخسة والدناءة فلهذا صار كل من التملق والمعرة وارتكاب الجرائم فنا لابد منه فى الوصول الى تلك المناصب

ومع ذلك كان لا يظهر أن طيبار يوس يريد مذلة جمعية السنت حيث كان لا يشكى من شئ أكثر من الميل الذى كان يبعث هذه الجمعية الى العبودية فلذا كانت سيرته مشحونة بتفوره من هذا المعنى ولكن كان كاغلب الرجال يريد أشياء متضادة فلم تكن سياسته العمومية مطابقة لاهوائه الخصوصية فكان يشتهى أن لو كانت جمعية السنت حرة وأهلا لان تقوى شوكة حكومته ولكن كان يريد أيضا جمعية توافقه على أغراضه فى جميع الاوقات وتبادر بما يزيل خوفه ويبعد غيرته ويشفى غليله من أعدائه فغلب رجل البشر رجل الملك يعنى أن الطبع البشرى غلب على الناموس الملكى وقد ذكرنا فيما تقدم أن الامة الرومانية سابقا بلغت ما ربها من أن يكون منها بطارقة (أشراف) وأن يكون منها حكام يذبون عنها ما عساه أن يقع لها من الضرر والظلم ولاجل أن يكون هؤلاء البطارقة فيهم أهلية واقتدار على تنفيذ أحكامهم نالوا مزية كون ذواتهم مقدسة لا تنتهك حرمتهم ولا يتعرض لهم بسوء وصدر الامر بان كل من أساء واحدا منهم بالقول أو بالفعل عوقب بالقتل فورا ولما كان الامبراطرة منتظمين فى زمرة الحكام المحامين كانوا مثلهم فى الحرمة وبناء على هذا الاصل قتل كثير من الناس وسهل على الوشاة والمتجسسين السعى بالنميمة وصارت دعوى الخوض فى حق الامبراطور أو اهانته متوسعا فيها كما يراد بحيث صار يرافع فيمن يدعى عليه بهذا الذنب كما قال بلنياس وأن لا يستحق المؤاخذة عليه

ولكن يظهر لى أن من تلك المرافعات ما لم يكن يعد عيبا فى ذلك الوقت كما يترا آى انه الآن عيب والا فكيف يتصور أن الامبراطور طيبار يوس آخذ رجلا بايع بيته وكانت فيه الصورة الامبراطورية

وأن دوميتيانوس حكم بالقتل على امرأة لكونها خلعت ثيابها أمام صورته وعلى رجل من الاهالى لكونه رسم وصف جميع الارض وتخطيطها على جدران غرفته الا أنهم الآن تكون هذه الاعمال لها فى عقول الرومانيين معنى آخر غير ما يتصور منها الآن وأظن أن بعضها مبنى على أن رومة لما تغيرت حكومتها صار يعد من الكبائر ما يترا آى لنا الآن انه ليس عظيم شئ قياسا على ما هو موجود الآن من أن أمة من أمم عصرنا هذا لا يمكن توهم الظلم فيها الا يباح عندها أن يشرب الشراب على محبة بعض من الناس لا أسميه

ولا يسعنى أن أترك شيأ مما يفيد معرفة القوة الغريزية للامة الرومانية فقد كانت مطبعة على الطاعة لحكامها والمسرة بمن تميز مقداره من هؤلاء الحكام فكيف لا وهى بعد موت جرمانيقوس ظهر عليها من الاسف والحزن واليأس ما لا يقع مثله عند أهل أوروبا الآن فمن أراد أن يقف على ذلك فليراجع ما ذكره تاسيت وغيره من المؤرخين فى هذا المعنى من وصف الحزن الذى عم الخاص منهم والعام وشدته وطول مدته والافراط فيه ولم يكن ذلك صادرا منهم على وجه التصنع اذ يستحيل أن أمة بتمامها تتصنع أو تتملق أو تنافق

وذلك ان الامة الرومانية التى لم يكن لها مدخلية فى الحكومة كانت فى الغالب مؤلفة من المحررين العتقاء ومن لا تكسب لهم ممن كانت معيشتهم على طرف الخزينة الميرية فلذا كانت تتألم بعجزها كتألم الاطفال والنساء بالضعف فكأنها مريضة قصرت خوفها ورجاءها على جرمانيقوس فلما فقدت هذه الذخيرة وقعت فى اليأس والقنوط

وليس هنالك أحد يخشى المصائب جدا الا من كان سوء حاله قد بلغ منتهاه بحيث كان من حقه أن يأمن ولا يخشى شيأ بل يقول كما قالت اندروماك (زوجة هقطور مالك تروادة) حين وقعت أسيرة فى أخذ تروادة وفقدت زوجها ووقعت فى اليأس والقنوط ليتنى كنت أخاف ويوجد الآن فى نابلى خمسون ألف نفس لا يقتاتون سوى الاعشاب والحشائش وليس على أجسادهم الا ما يستر العورة فهم أشقى أهل الارض ومع ذلك يعتريهم الخوف الشديد بمجرد تصاعد أدنى دخان من بركان ويزوف فمن حنقهم يخافون الشقاء وهو واقع بهم

(فصل فى أصول جديدة سلكها الرومانيون)

قد يلتجأ فى بعض الاحيان عن جبن الامبراطرة وفى الغالب عن ضعف الدولة الاحتياج الى تسكين الامم التى يخشى منها الاغارة على الامبراطورية بالدراهم ولكن الصلح لا يصح أن يشترى لان من سبق له بيعه لا يزال دائما مقتدرا على تطلب شرائه منه المرة بعد المرة

فالاولى أن تخاطر الدولة بالحرب ولو بصفقة المغبون من أن تربح الصلح بالثمن لما أن العادة أنه متى علم أن الملك لا يغلب الا بعد مجالدة طويلة يهاب ويحترم وأيضا شراء الصلح الذى كان عند الرومانيين من نوع المهادنة ظاهرا استحال الى عوائد مقررة وبعد أن كان فى مبدأ الامر رخصة ومحض تبرع صار لازما وعد من الحقوق المكتسبة لآخذيه ولما أبى بعض الامبراطرة اعطاءه بالكلية للامم المتعودة عليه أو أراد تنقيصه صار هؤلاء الامم أعدى عدو للامبراطورية وذلك شواهد كثيرة تقتصر منها على ما سيأتى وهو أن الجيش الذى قاده يوليانوس لغزو الفرس اقتفاه فى رجعته قبائل العرب حيث ان هذا الامبراطور أبى أن يدفع لهم العوائد المقررة وبعد ذلك فى عهد والنطنيانوس غضب الالمان لما أعطى لهم هدايا أقل من العادة بكثير ومع أن هؤلاء الامم الشمالية كانوا أصحاب عرض وشرف نفس نقموا على الرومانيين فى نظير الخوض فى حقهم بمنعهم من حقهم الادعائى وشنوا عليهم الغارة وحاربوهم حربا شديدا

فترتب على ذلك أن جميع هؤلاء الامم المحيطين بالامبراطورية من جهتى أوروبا وآسيا سلبوا أموال الرومانيين شيأ فشيأ ولما كان اتساع دائرة الامبراطورية فى العظم انما هو مما كان يجلب اليهم من الذهب والفضة من سائر الملوك داخلهم الضعف حين انتقل الذهب والفضة من عندهم الى غيرهم من الامم (قال بعض الامبراطرة لجنده وقد أظهر القلق والضجر من قلة الدراهم ان كان مرادكم المال فهاهى بلاد العجم اذهبوا بنا اليها لنكتسب أموالها فانه لم يبق شئ من الخزائن التى كانت تملكها الجمهورية الرومانية وداء الفاقة انما حصل ممن أشار على الامبراطرة بشراء الصلح من الامم المتبربرة فقد نفدت أموالنا وخربت مدننا وديارنا والملك الذى لا يملك شيأ الاشرف النفس لا يستحى أن يعترف بالفقر المجرد على العيب انتهى) فالخلل الذى يقع من رجال الدولة ليس ناشئا دائما عن مجرد هوى النفس بل منشؤه فى الغالب ضروريات مقتضيات الاحوال ومن المضار تتولد المضار

وذلك أن عساكر الطوائف صارت حملا على الدولة كما سبقت الاشارة اليه وبيانه أن العساكر المنتظمة كان لها من الكسب ثلاث جهات وهى العلوفة المعتادة والمكافأة بعد الخدمة والانعامات الطارئة عند الاقتضاء وصارت هذه الجهات الثلاث حقوقا واجبة لهذه العصابة التى كان بين يديها الملوك والاهالى

فلما عجزت الدولة عن القيام بهذه الحقوق استبدلت هؤلاء العساكر بعساكر الطوائف التى هى أقل منها كلفة وأرخص علوفة وكان أخذها على شروط من الامم المتبربرة حيث لم يكن عندهم زينة عساكر الرومانيين ولا عقلهم ولا طمعهم وكان هنالك سهولة أخرى لايثارهم وذلك أن المتبربرين كانوا يغيرون بغتة على اقليم من الاقاليم الرومانية فلا يجد الرومانيون بعد قصد السفر لممانعة أهمية

ويتعذر عليهم جمع العساكر قبل فوات الوقت من الاقاليم والولايات فيضطرون الى أخذ طائفة متبربرة متأهبة للحرب بواسطة الدراهم ومتهيئة للسلب والقتال فبذلك كان يجد الحاكم مطلوبه في وقته ولكنه فيما بعد يصير هؤلاء العساكر المساعدون كالعدو في الخطر

وكان أوائل الرومانيين لا يتخذون جنودا من الاغراب المساعدين تزيد بكثير على العساكر الرومانية ولكون محالفيهم كانوا رعاياهم بالكلية لم يرض الرومانيون أن يتخذوا لهم محالفين ورعايا من الامم الفائقة عليهم في الشجاعة

ولكن في الازمان المتأخرة لم يقتصروا على اهمال النسبة التي كانوا محافظين عليها في الازمان الاولية بين العساكر الاهلية والعساكر الاجنبية بل جعلوا في ألايات الجيوش الاهلية دخيلا عظيما من العساكر الاجنبية

فبهذا تجددت عندهم عوائد مخالفة بالكلية للعوائد التي ملكوا بها في قديم الزمان الدنيا بأسرها وكانوا سابقا محافظين في سياستهم على تخصيص أهاليهم بفن العسكرية وحرمان من جاورهم من ذلك الفن ثم بطل ذلك من عندهم وتجدد عند غيرهم من مجاوريهم ولا مانع من أن يقال ان تاريخ الرومانيين عبارة عن كونهم هزموا جميع الامم باصولهم فلما توصل هؤلاء الامم الى هذه الاصول لم يتيسر بقاء الجمهورية على حالها فوجب العدول الى تغيير صورة الحكومة فوضع في هذه الحكومة الجديدة أصول منابذة لاصول الحكومة الاولية انحطت بها درجة عظمهم

ولا يقال ان الاستيلاء على الدنيا انما هو بسعادة البخت ووفور الحظ كما يقضي بذلك حالة دولة الرومانيين فانها توالت عليها السعود الدائمة حين كانت محكومة بصورة مخصوصة وتوالت عليها النحوس المتعاقبة حين تغيرت صورة حكومتها بنوع آخر وانما يقال ان هنالك علالا كلية باطنية أو ظاهرية فعالة في كل مملكة ترفعها وتمسكها من الزوال أو تضعها وتسرع زوالها وجميع العوارض الجزئية لا تخرج عن تأثير تلك العلل الكلية فاذا اتفق أن واقعة من الوقائع الحربية أعني علة جزئية أبادت مملكة من الممالك فلا بد وأن يكون هنالك علة كلية اقتضت أنه يكفي في ابادة هذه المملكة واقعة واحدة وقصارى الامر أن تأثير العلة الكلية يسري في جميع جزئياتها

فانا نرى أنه منذ نحو قرنين كانت جيوش الدانيمرقيين هزمها غالبا جيوش الاسوج فوجب أن يكون هنالك بقطع النظر عن شجاعة الامتين وعن مزية الاسلحة خلل داخلي في أصول الحكومة الدانيمرقية إما في الادارة العسكرية أو في الادارة الملكية ترتب عليه هزيمة جيوشها وأظن أن هذا الخلل لا يتعسر ادراكه

وبالجملة فقد فقد الرومانيون التربية العسكرية حتى أفضى بهم ذلك الى هجرهم نفس أسلحتهم الخاصة بهم فقد حكى المؤلف ويجيء أن العساكر لما وجدوا أسلحتهم ثقيلة عليهم جدا التمسوا

من الامبراطور غراسيانوس أن يعافيهم من لبس الدروع فأجابهم الى ذلك ثم أذن لهم أيضا فى خلع الخود والعمائم الحربية فصاروا بذلك عرضة للطعن بدون وقاية وسهل عليهم الفرار وتولى الادبار

وقد ذكر هذا المؤلف أيضا أنهم لتسواعادة تحصين معسكرهم وبهذا التفريط صارت عساكرهم عرضة لسبى فرسان الامم المتبربرة وأسرهم لها وكانت الفرسان عند أوائل الرومانيين قليلة فلم تكن نسبتها للمشاة المنتظمة الاجزأ من أحد عشر وربما كانت دون ذلك وأغرب من هذا أن نسبة الفرسان عندهم الى المشاة هى أقل بكثير من نسبتها اليها عندنا فى هذا الزمان مع شدة الحاجة الى المشاة فى المحاصرات المتكاثرة الآن حيث ان الفرسان فى ذلك نفعها قليل

ولما أخذت دولتهم فى الانحطاط كثرت عندهم الفرسان حتى كادت عساكرهم لا تكون الا فرسانا والظاهر أنه كلما كثرت معرفة أمة فى فن العسكرية كان معظم تعويلها على المشاة وكلما قلت معرفتها له تكاثرت فرسانها وذلك أنه بدون التعليمات العسكرية والتربية الحربية تكون العساكر المشاة ثقيلة كانت أو خفيفة كلا شئ بخلاف الفرسان فانها تسعف ولو كانت غير منتظمة (فقد صدر عن فرسان التتار من غير أن تتعلم أصول الحركات العسكرية الافرنجية أمور جسيمة كما يفهم ذلك من تواريخ فتح المغول للصين) لما أن معظم قوة الفرسان فى حملها ومصادمتها المصادمة الخاصة بها وأما قوة المشاة فانما هى فى مجالدتها وثباتها المخصوص فقوة المشاة تكاد أن تكون فى الحقيقة قوة مدافعة لا قوة مهاجمة

وبالجملة فقوة الفرسان وقتية وقوة المشاة تستمر على العمل زمنا طويلا غير أنه يلزم لاستمرارها بهذه المثابة التربية والتعليم

وقد توصل الرومانيون الى التصرف بالامر والنهى فى جميع الامم ولم يكن هذا بمجرد معرفتهم فن العسكرية بل بضمهم الى ذلك سلوك سبيل الحزم والتعقل والثبات والميل الى الفخار وحب الوطن فلما زالت منهم هذه الصفات فى زمن الامبراطرة وبقى لهم فن الحرب حفظوا به ما اكتسبوه وحصلوه مع ضعفهم وظلم أمرائهم فلما دخل الفساد فى عساكرهم صاروا مغنما لجميع الامم

وذلك أن الدولة التى أقيمت بالاسلحة يلزم أن تبقى بالاسلحة وكما أن الدولة اذا كانت منغصة بالفتن لا يتصور كيف يكون انفاذها كذلك اذا كانت فى الصلح والراحة وكانت مهابة الشوكة لا يدرى أيضا كيف تتغير عن هذه الحالة الى حالة الحرب والتعب حتى يحترس لها فهذا تمهل فى العسكرية لانها لا ترجو خيرها بل تخاف شرها وفى الغالب تبحث عن اضعافها

وأيضا كان من القوانين المتمسك بها عند أوائل الرومانيين أن من ترك محله من العساكر أو ألقى سلاحه فى المعركة فعقابه الموت فجدد كل من بوليبانوس ولنطنيانوس هذه القوانين القديمة

بما فيها من الجزاء فلما دخلت العساكر المتبربرة فى خدمة الرومانيين وكانوا متعودين على فعل الحرب كما يفعله الآن قبائل التتار من الفر لاجل الكر وقصد السلب والنهب أكثر من قصد الشرف لم يقدر هؤلاء العساكر على العمل بموجب تلك القوانين القديمة لمنابذتها التربيتهم وطبيعتهم (فلم يرضوا أن يلتزموا بما كان يلتزمه عساكر الرومانيين من الواجبات)

وكان من جملة التربية العسكرية عند أوائل الرومانيين ماوقع من أن بعض أمراء الجيوش حكموا على أولادهم بالقتل فى نظير كونهم هجموا على العدو وانتصروا عليه قبل أن يصدر لهم الاذن بذلك فلما اختلطوا بالعساكر المتبربرة سرى لهم من طباعهم بعض ميل الى الحرية وعدم الطاعة ومن قرأ قصة حروب الجنرال بليزيرة مع الغوطية رأى أن هذا الجنرال كاد أن يكون فى أغلب الاوقات غير مطاع ممن تحته من الرؤساء

وكان سلا وسرطوريوس فى شدة الحروب الداخلية يؤثران الهلاك على أن يفعل أحدهما مع الآخر شيأ يعود بالنفع على متريداتس (ملك بلاد بنطش) ولكن فى الازمان الاخيرة التى أعقبت ذلك كان متى اقتضت مصلحة وزير أو أمير أن يدخل الاجانب فى البلاد الرومانية لحرص أو انتقام أو مطمع يسلم لهم أولا فى نهبها (وليس هذا بعجيب من اختلاط الرومانيين بأمم كانت قبل ذلك هائمة بدون وطن وكان منها فى الغالب فرق عسكرية كاملة تنضم الى العدو الذى غلبها وتقاتل معه ملتها كما حصل ذلك من الغوطية فى عهد ملكهم ويتجبس)

وأشد الدول احتياجا الى الخراج هى الدول الآخذة فى الضعف بحيث تضطر الى زيادة ضربه على الاهالى بقدر ضعفهم عن حمله والوفاء به فلذلك صارت الخراجات المضروبة على الاقاليم الرومانية لا تطاق ولا تحمل

وبالوقوف على كتاب سلويانس يعلم الظلم الشديد الذى كان يقع فى الامة الرومانية فترى الاهالى حين كان يضيق عليهم جباة الاموال المحصلون لها لا يجدون لهم ملجأ الا الهروب عند الامم المتبربرة أو بيع حريتهم لاى انسان يريد شراءها

وبهذا يتبين لك فى تاريخ الفرنساوية سر تحمل الغلبة (قدماء الفرنساوية) للفتنة التى وقعت وكانت أساسا للفرق بين الاشراف والعامة وذلك ان الاغراب الذين حكموا عليهم بعد الرومانيين لما جعلوا كثيرا من الاهالى أرقاء الاراضى بمعنى أنهم تابعون للارض المنسوبين اليها قل أن جددوا من الجبر شيأ زائدا عما وقع من الظلم ممن قبلهم من الرومانيين

(من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)
وفى استكمال واختلال دولة الرومان

ذكر مقتل على بن أبي طالب رضى الله عنه

وفى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه اليه حتى يقتله أو يقتل دونه وهم عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وكان من تجيب وكان عداده فى مراد فنسب اليهم وحجاج بن عبد الله الصريمى ولقبه البرك وزادويه مولى بنى العنبر فقال ابن ملجم أنا أقتل عليا وقال البرك أنا أقتل معاوية وقال زادويه أنا أقتل عمرو بن العاص واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان وقيل ليلة احدى وعشرين فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادى الى على فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت عمه وكان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها فقالت لا أتزوج حتى تسمى لى قال لا تسألينى شيأ الا أعطيته فقالت ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل على فقال ما سألت هو لك مهر الا قتل على فلا أرالك تدركينه قالت فالتمس غرة فان أصبته شفيت نفسى ونفعك العيش معى وان هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال والله ما جاء بى الى هذا المصر وقد كنت هاربا منه الا ذلك وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها وهو يقول

ثلاثة آلاف وعبد وقينة * وقتل على بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من على وان علا * ولا قتل الا دون قتل ابن ملجم

فلقيه رجل من أشجع يقال له شبيب بن بجيرة من الخوارج فقال له هل لك فى شرف الدنيا والآخرة فقال وما ذاك قال تساعدنى على قتل على قال ثكلتك أمك لقد جئت شيأ إدا قد عرفت غناءه فى الاسلام وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ابن ملجم ويحك أما تعلم أنه قد حكم الرجال فى كتاب الله وقتل اخواننا المصلين فنقتله ببعض اخواننا فأقبل معه حتى دخل على قطام وهى فى المسجد الاعظم وقد ضربت كلة بها وهى معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما فدعت لهما بحرير وعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التى يخرج منها على للمسجد وكان على يخرج كل غداة أول الاذان للصلاة وقد كان ابن ملجم مر بالاشعث وهو فى المسجد فقال له فضحك الصبح فسمعها حجر بن عدى فقال قتلته يا أعور قتلك الله وخرج على رضى الله عنه ينادى أيها الناس الصلاة فشد عليه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولون الحكم لله لا لك وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب وأما ابن وردان فهرب وقال على لا يفوتنكم الرجل

وشدّ الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ويتناولونه ويصيحون فضرب ساقه رجل من همدان برجله وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه وأقبل به الى الحسن ودخل شبيب بين الناس فنجا بنفسه وهرب حتى أتى رحله فدخل عليه عبد الله بن بجرة وهو أحد بني أبيه فرآه ينزع الحرير عن صدره فسأله عن ذلك فخبره بخبره فانصرف عبد الله الى رحله وأقبل اليه بسيفه فضربه حتى قتله وقيل ان عليا لم ينم تلك الليلة وانه لم يزل يمشي بين الباب والحجرة وهو يقول والله ما كذبت ولا كذبت وانها الليلة التي وعدت فلما صرخ بط كان للصبيان صاح بهن بعض من في الدار فقال علي ويحك دعهن فانهن نوائح وقد ذكر طائفة من الناس أن عليا رضي الله عنه أوصى الى ابنيه الحسن والحسين لانهما شريكاه في آية التطهير وهذا قول كثير من ذهب الى القول بالنص ودخل عليه الناس يسألونه فقالوا يا أمير المؤمنين أرأيت ان فقدناك ولا نفقدك أنبايع الحسن قال لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما أوصيكما بتقوى الله وحده ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شيء منها قولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ولا تأخذكما في الله لومة لائم ثم نظر الى ابن الحنفية فقال هل سمعت ما أوصيت به أخويك قال نعم قال أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك وتزيين أمرهما ولا تقطعن أمرا دونهما ثم قال لهما أوصيكما به فانه سيفكما وابن أبيكما فاكرماه واعرفا حقه فقال له رجل من القوم ألا تعهد يا أمير المؤمنين قال لا ولكن أتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما تقول لربك اذا أتيته قال أقول اللهم انك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ثم قبضتني وتركتك فيهم فان شئت أفسدتهم وان شئت أصلحتهم ثم قال أما والله انها الليلة التي ضرب فيها أبو شجاع ابن نون ليلة تسبع عشرة وقبض ليلة احدى وعشرين وبقي على الجمعة والسبت وقبض ليلة الاحد ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة وقيل اثنتان وستون وكان كما قال الحسن والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الاولون ولا يدركه الآخرون وان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه وكان الذي صلى عليه الحسن ابنه وكبر عليه سبعا وقيل غير ذلك ولم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من اعطائه أراد أن يشتري بها خادما لاهله وقال بعضهم ترك لاهله ما ثتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه ولما أراد قتل ابن ملجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر دعوني حتى أشفي نفسي منه فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسمارا حتى اذا صار جمرة كحله به فقال سبحان الذي خلق الانسان انك لتكحل عملك بعامل بصاص ثم ان الناس أنعذوه وأدرجوه في براري ثم طاروها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق

ولعمران بن حطان ولابيه حطان أخبار كثيرة وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بفروان فأدخل على المقتدر بالله بعث به ابن حمدان من هرمونياء وقد كان خرج في أيامه أيضا المعروف بأبي شعيب وقد ربى الناس أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه في ذلك الوقت والى هذه الغاية وذكروا مقتله وممن رثاه في ذلك الوقت أبو الاسود الدؤلي من أبيات

ألا أبلغ معاوية بن حرب * فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا * وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها * ومن قرأ المثاني والمئينا
اذا استقبلت وجه أبي حسين * رأيت النور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت * بانك خيرهم حسبا ودينا

وانطلق البرك الصريمي الى معاوية فطعنه بخنجر في أليته وهو يصلي فأخذوا وقف بين يديه فقال له ويلك وما أنت وما خبرك قال لا تقتلني وأخبره قال انا نبايعنا في هذه الليلة عليك وعلى علي وعلى عمرو فان أردت فاحبسني عندك فان كانا قتلا والا خليت سبيلي فطلبت قتل علي ولك على أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدي في يدك فقال بعض الناس قتله يومئذ وقال بعضهم حبسه حتى جاءه خبر قتل علي فأطلقه وانطلق زاد وبه عمرو بن بكر التميمي الى عمرو بن العاص فوجد خارجة قاضي مصر جالسا على السرير يطعم الناس في مجلس عمرو وقيل بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض فضربه بالسيف فدخل عليه عمرو وبه رمق فقال له خارجة والله ما أراد غيرك فقال عمرو ولكن الله أراد خارجة وأوقف الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره فقص عليه القصة وأخبره أن عليا ومعاوية قد قتلا في هذه الليلة فقال ان قتلا أو لم يقتلا فلابد من قتالك فبكى فقيل له أجزعا من الموت مع هذا الاقدام فقال لا والله ولكن غما أن يفوز صاحبي بقتل علي ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو فضرب عنقه وصلب وكان علي رضي الله عنه كثيرا ما يتمثل

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى * فلا وربك ما برّوا وما ظفروا
فان هلكت فرهن ذمتى لهم * بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين

أشدد حيازيمك للموت * فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت * اذا حل بواديكا

وسمعا منه فى الوقت الذى قتل فيه فانه قد خرج الى المسجد وقد عسر عليه فتح باب داره وكان من جذوع النخل فاقتلعه وجعله ناحية وانحل ازاره فشده وجعل ينشد هذين البيتين المتقدمين وقد كان معاوية دس أناسا الى الكوفة يشيعون موته وأكثر الناس القول فى ذلك حتى بلغ عليا فقال فى مجلسه قد أكثرتم من نعى معاوية والله ما مات ولا يموت حتى يملأ ما تحت قدمى وانما أراد ابن أكلة الاكباد أن يعلم ذلك منى فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندى فيه وما يكون من أمره فى المستقبل من الزمان ومر فى كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب فارتفع الضجيج وكثر البكاء والشهيق فقام قائم من الناس فقال يا أمير المؤمنين لقد وصفت أمورا عظيمة آلله ان ذلك كائن قال على والله ان ذلك لكائن ما كذبت ولا كذبت. فقال آخرون متى ذلك يا أمير المؤمنين قال اذا خضبت هذه من هذه ووضع احدى يديه على لحيته والاخرى على رأسه فاكثر الناس من البكاء فقال لا تبكوا فى وقتكم هذا فستبكون بعدى طويلا فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سرا فى أمورهم واتخذوا عنده الايادى فوالله ما مضت الأيام قلائل حتى كان ذلك (من مروج الذهب)

ذكر لمع من كلامه وأخباره وزهده رضوان الله عليه

لم يلبس عليه السلام فى أيامه ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولا ربحا الا شيأ كان له بسرف مما تصدق به وحبسه والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا (وقيل له) من خيار العباد قال الذين اذا أحسنوا استبشروا واذا أساؤا استغفروا واذا ابتلوا صبروا واذا غضبوا غفروا (وكان) يقول الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها الدنيا مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله ومهبط وحيه ومتجر أوليائه اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة فمن ذا يذمها وقد آذنت بينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها ومثلت لهم ببلائها البلاء وشوقت بسرورها الى السرور وراحت بفجيعة وابتكرت بعافية تحذيرا وترغيبا وتخويفا فذمها رجال غب الندامة وحمدها آخرون غب المكافأة ذكرتهم فذكروا تصاريفها وصدقتهم فصدقوا حديثها فيا أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها متى استدامت لك الدنيا بل متى غرتك من نفسها أبمضاجع آبائك من البلى أم بمصارع أمهاتك من الثرى كم قد عللت بكفك ومرضت بيدك تبغى له الشفاء وتستوصف له الاطباء لم تنفعه بشفائك ولم تستعفه بطلبتك قد مثلت لك به الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك غدا لا ينفعك بكاؤك ولا يغنى عنك أحباؤك

ولا تسمع فى مدح الدنيا أحسن من هذا (ومما) حفظ من كلامه فى بعض مقاماته فى صفة الدنيا أنه قال ألا ان الدنيا قد ارتحلت مدبرة وان الآخرة قد دنت مقبلة ولهذه أبناء ولهذه أبناء فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا وكونوا من الزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ان الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الارض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا وقوضوا الدنيا تقويضا ألا ومن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ومن راقب الخير سارع فى الخيرات ألا وان لله عبادا يرون أهل الجنة فى الجنة منعمين مخلدين قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة أنفسهم عفيفة وحاجتهم خفيفة صبروا أياما قليلة فصارت لهم العقبى راحة طويلة أما الليل فصافوا أقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم يجأرون الى ربهم ويسعون فى فكاك رقابهم وأما النهار فعلماء حكماء برة أتقياء كانهم القداح براهم الخوف والعبادة ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض أم خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها (وقال لابنه الحسن) يا بنى استغن عمن شئت تكن نظيره وسل من شئت تكن حقيره وأعط من شئت تكن أميره (ودخل) عليه رجل من أصحابه فقال كيف أصبحت يا أمير المؤمنين قال أصبحت ضعيفا مذنبا آكل رزقى وأنظر أجلى قال وما تقول فى الدنيا قال وما أقول فى دار أولها غم وآخرها موت من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن حلالها حساب وحرامها عقاب قال فأى الخلق أنعم قال أجساد تحت التراب قد أمنت العقاب وهى تنتظر الثواب (ودخل) ضرار بن حمزة وكان من خواص على على معاوية وافدا فقال له صف لى عليا قال اعفنى يا أمير المؤمنين قال معاوية لابد من ذلك فقال أما اذا كان لابد من ذلك فانه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يجتنب من الطعام ما خشن ومن اللباس ما قصر وكان والله يجيبنا اذا دعوناه ويعطينا اذا سألناه وكنا والله على تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا يبسم عن مثل اللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين ويرحم المساكين ويطعم فى المسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة يكسو العريان وينصر اللهفان ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو فى محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويقول يا دنيا غرى غيرى الى تعرضت أم الى تشوقت هيهات هيهات لا حان حينك قد أبتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك عمرك قصير وعيشك حقير وخطرك يسير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق فقال له معاوية زدنى شيأ من كلامه فقال ضرار كان يقول أعجب ما فى الانسان قلبه وله موادمن الحكمة وأضدادمن خلافها

فان سنح له الرجاء أماله الطمع وان مال به الطمع أهلكه الحرص وان ملكه القنوط قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان أسعده الرضى نسى التحفظ وان أماله الخوف فضحه الجزع وان أفاد مالا أطغاه الغنى وان عضته فاقة فضحه الفقر وان أجهده الجوع أقعده الضعف وان أفرط به الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد فقال له معاوية زدني كلما وعيته من كلامه قال هيهات أن آتي على جميع ما سمعته منه ثم قال سمعته يوصي كميل بن زياد يا كميل ذب عن المؤمن فان ظهره حمى الله ونفسه كريمة على الله وظالمه خصم الله وأحذركم من ليس له ناصر الا الله قال وسمعته يقول ذات يوم ان هذه الدنيا اذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم واذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم قال وسمعته يقول بطر الغنى يمنع من عز الصبر قال وسمعته يقول ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبرة وسكوته فكرة وكلامه حكمة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قتل جعفر بن أبي طالب الطيار بمؤتة من أرض الشام لا يبعث بعلي في وجهة من الوجوه الا يقول رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين وحمل علي يوم أحد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم فقال جبريل يا محمد ان هذه لهي المواساة فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان عليا مني قال جبريل وأنا منكم كذلك ذكره اسحاق بن ابراهيم وغيره ووقف على علي سائل فقال للحسن قل لامك تدفع اليه درهما فقال انما عندنا ستة دراهم للدقيق فقال علي لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ثم أمر للسائل بالستة الدراهم كلها فمر برجل على رضي الله عنه حتى مر به رجل يقود بعيرا فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما وأنسأ أجله ثمانية أيام فلم يحل أجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال بكم هذا فقال بمائتي درهم فقال قد أخذته فوزن له الثمن فدفع علي منه مائة وأربعين درهما للذي ابتاعه منه ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام فسألته من أين هي فقال هذه تصديق لما جاء به أبوك صلى الله عليه وسلم من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومر ابن عباس بقوم ينالون من علي ويسبونه فقال لقائده أدنني منهم فأدناه فقال أيكم الساب لله قالوا نعوذ بالله أن نسب الله فقال أيكم الساب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نعوذ بالله أن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيكم الساب علي بن أبي طالب قالوا أما هذه فنعم قال أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سبني فقد سب الله ومن سب عليا فقد سبني فأطرقوا فلما ولى قال لقائده كيف رأيتهم فقال

نظروا اليك بأعين مزورة * نظر التيوس الى شفار الجازر

فقال زدني فداك أبي وأمي فقال

خزر العيون منكسى أذقانهم * نظر الذليل الى العزيز القاهر

قال زدنى فداك أبى وأمى قال ماعندى مزيد ولكن عندى

أحياؤهم تجنى على أمواتهم * والميتون فضيحة للغابر

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على بن الحسين بن على أن عليا قال فى صبيحة الليلة التى ضربه فيها عبد الرحمن بن ملجم بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم كل امرئ ملاقيه مايفر منه والاجل تساق النفس اليه والهرب منه موافاته كم اطردت الايام أبحثها عن مكنون هذا الامر فأبى الله عز وجل الا اخفاءه هيهات علم مكنون أما وصيتى فلا تشركوا به شيأ ومحمد لاتضيعوا سنته أقيموا هذين العمودين وحل كل امرئ منكم مجهوده وخفف عن الحملة رب رحيم ودين قويم وامام عليم كانى اعصار ودوى رياح تحت ظل غمامة اضمحل راكدها فخطها من الارض حيا وبقى من بعدى خبرها واستكنه بعد حركة كالطامة بعد نطق ليعظكم هدوى وخفوت اطرافى انه أوعظ لكم من نطق البليغ وتدعتكم وداع امرئ مرصد للتلاق وغدا ترون ويكشف عن ساق عليكم السلام الى يوم المرام كنت بالامس صاحبكم واليوم عظة لكم وغدا أفارقكم ان أفق فأنا ولى دمى وان أمت فالقيامة ميعادى والعفو أقرب للتقوى ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (من مروج الذهب)

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين وهو اليوم الذى مات فيه سليمان وتوفى بدير سمعان من أعمال حمص مما يلى بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام وقبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة وقبره مشهور فى هذا الموضع الى هذه الغاية معظم يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور غيره من بنى أمية وأمه بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقيل انه قبض وهو ابن أربعين سنة وقيل ابن احدى وأربعين سنة وقد تنوزع أيضا فى مقدار مدته فى الخلافة

ذكر لمع من أخباره وسيره وزهده

لم تكن خلافة عمر فى عهد تقدم وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء ابن حيوة ومحمد بن شهاب الزهرى ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان فى عسكره غازيا ونافرا

فكتب وصيته وأشهدهم عليها وقال اذا أنا مت فأذنوا بالصلاة جامعة ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس فلما فرغ من دفنه نودى الصلاة جامعة فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فاشرأبوا للخلافة وتشوفوا نحوها فقام الزهرى فقال أيها الناس أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته فقالوا نعم فقرأ الكتاب فاذا اسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك فقام مكحول فقال أين عمر وكان عمر فى أواخر الناس فاسترجع حين دعى باسمه مرتين أو ثلاثا فأتوه فأخذوا بيده وعضديه فأقاموه وذهبوا به الى المنبر فصعد وجلس على المرقاة الثانية وللمنبر خمس مراقى فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا وبايع الناس جميعا ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين وكان عمر فى نهاية النسك والتواضع فصرف عمال من كان قبله من بنى أمية واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته وترك لعن على عليه السلام على المنابر وجعل مكانه ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم وقيل بل جعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية وقيل بل جعلهما جميعا فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة الى هذه الغاية ولما استخلف عمر ودخل عليه سالم السدى وكان من خاصته فقال له عمر أسرك ما وليت أم ساءك فقال سرنى للناس وساءنى لك قال انى أخاف أن أكون أوبقت نفسى قال ما أحسن حالك ان كنت تخاف انى أخاف عليك أن لا تخاف قال عظنى قال أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة وكتب طاوس الى عمر ان أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير فقال عمر كفى بها موعظة ولما أفضى اليه الامر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال أيها الناس انما نحن من أصول قد مضت فروعها فما بقاء فرع بعد أصله وانما الناس فى هذه الدنيا أعراض تتنصل فيهم المنايا وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق وفى كل أكلة غصص لا ينالون نعمة الا بفراق أخرى ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره الا بهدم آخر من أجله وكتب الى عامله بالمدينة أن اقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار فكتب اليه ان عليا قد ولد له فى عدة قبائل من قريش ففى أى ولده فكتب اليه لو كتبت اليك فى شاة تذبحها الكتبت الى سوداء أو بيضاء اذا أتاك كتابى هذا فاقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم والسلام (وخطب) فى بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ألا وانى لست بقاض ولكنى منفذ ألا وانى لست بمبتدع ولكنى متبع ان الرجل الهارب من الامام الظالم هو العاصى ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (وبعث) عمر وفدا الى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه اليه

فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه والبطارقة عن يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه فأدى اليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب وانصرفوا عنه فى ذلك اليوم فلما كان فى غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه فاذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه وقد تغيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة فقال هل تدرون لماذا دعوتكم قالوا لا قال ان صاحب مصلحتى التى تلى العرب جاءنى كتابه فى هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات فاملكوا أنفسهم أن بكوا فقال لا تبكوا له وابكوا لانفسكم ما بدا لكم فانه خرج الى خير مما خلف قد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة لقد بلغنى من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى ولقد كانت تأتينى أخباره باطنا وظاهرا فلا أجد أمره مع ربه الا واحدا بل باطنه أشد حين خلا به بطاعة مولاه ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ولكنى عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب ان أهل الخير لا يقون مع أهل الشر الا قليلا (وكتب عمر) الى أبى حازم المدنى الاعرج أن أوصنى وأوجز فكتب اليه كأنك يا أمير المؤمنين بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل والسلام (ووقع) الى عامل من عماله قد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما عدلت واما اعتزلت والسلام

وذكر المدائنى قال كان يشترى لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها فلما أتته الخلافة كان يشترى له قميص بعشرة دراهم فاذا لبسه استلانه وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة فقال لهم قفوا حتى آتى قبور الاحبة فأسلم عليهم فلما توسطها وقف فسلم وتكلم وانصرف الى أصحابه فقال ألا تسألونى ماذا قلت لهم وماذا قيل لى قالوا وماذا قلت يا أمير المؤمنين وماذا قيل لك قال مررت بقبور الاحبة فسلمت فلم يردوا ودعوت فلم يجيبوا فبينا أنا كذلك اذ نوديت يا عمر أتعرفنى أنا الذى غيرت محاسن وجوههم ومزقت الاكفان عن جلودهم وقطعت أيديهم وأبنت أكفهم من سواعدهم ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ فوالله ما مضى بعد ذلك الا أيام حتى لحق بهم (وذكر المدائنى) قال كتب مطرف الى عمر أما بعد فان الذنوب ادارعقوبة لها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم له فكن بها كالمداوى جرحه واصبر على شدة الدواء لما تخاف من عاقبة الداء (وذكر بعض الاخباريين) أن عمر فى عنفوان حداثته جنى عليه عبده أسود جناية فبطحه وهم ليضربه فقال له العبد يا مولاى لم تضربنى قال لانك جنيت كذا وكذا قال فهل جنيت أنت جناية قط غضب بها عليك مولاك قال عمر نعم قال فهل عجل عليك العقوبة قال اللهم لا قال العبد

فلم تعجل علي ولم يعجل عليك فقال له قم فأنت حر لوجه الله وكان ذلك سبب توبته وكان عمر يكثر هذا الكلام في دعائه فيقول ياحليما لا يعجل على من عصاه (وذكر جماعة من الاخباريين) أن عمر لما ولي الخلافة وفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز فاختار الوفد غلاما منهم فقدموه عليهم ليبدأ بالكلام فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سنا قال عمر مهلا يا غلام ليتكلم من هو أسن منك فقال مهلا يا أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه لسانه وقلبه فاذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استجاد له الحلية يا أمير المؤمنين ولو كان التقدم بالسن لكان في هذه الامة من هو أسن منك قال تكلم يا غلام قال نعم يا أمير المؤمنين نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة قدمنا اليك من بلدنا نحمد الله الذي منّ بك علينا لم يخرجنا اليك رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد أتانا منك الى بلدنا وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك فقال عظنا يا غلام وأوجز قال نعم يا أمير المؤمنين ان أناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك فنظر عمر في سن الغلام فاذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة فأنشأ عمر رحمه الله يقول

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

(من كتاب مروج الذهب)

(القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة الانصاري)

وسعد بن حبتة أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو مشهور في الانصار بأمه وهي حبتة بنت مالك من بني عمرو بن عوف وأما أبو سعد حبتة فهو عوف بن بجير بن معاوية بن سلمى بن بجيلة حليف بني عمرو ابن عوف الانصاري هكذا ساق نسب سعد بن حبتة في الاستيعاب وأما الخطيب أبو بكر البغدادي فانه قال في تاريخه هو سعد بن بجير بن معاوية بن قحافة بن بليل بن سدوس بن عبد مناف بن أبي سامة ابن شجعمة بن سعد بن عبد الله بن قداد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن بجيلة كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة وهو صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه وكان فقيها عالما حافظا سمع أبا اسحاق الشيباني وسليمان التيمي ويحيى بن سعيد الانصاري والاعمش وهشام بن عروة وعطاء بن السائب ومحمد بن اسحاق بن يسار وتلك الطبقة وجالس محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ثم جالس أبا حنيفة رضي الله عنه النعمان بن ثابت وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه وخالفه في مواضع كثيرة وروى عنه محمد بن الحسن الشيباني الحنفي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن الجعد وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين في آخرين وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها

لثلاثة من الخلفاء المهدى وابنه الهادى ثم هرون الرشيد وكان الرشيد يكرمه ويجله وكان عنده حظيا مكينا وهو أول من دعى بقاضى القضاة ويقال انه أول من غير لباس العلماء الى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيأ واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلى بن المدينى فى ثقته فى النقل وذكر أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب فى كتابه الذى سماه كتاب الانتهاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء أن أبا يوسف المذكور كان حافظا وانه كان يحفظ خمسين ستين حديثا ثم يقوم فيمليها على الناس وكان كثير الحديث وقال محمد بن جرير الطبرى وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأى عليه وتفريعه الفروع والاحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء (وحكى) أبو بكر الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد أن أبا يوسف قال كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال يا بنى لا تقدر جلالك مع أبى حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مشوى وأنت تحتاج الى المعاش فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبى فتفقدنى أبو حنيفة رضى الله عنه وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه قال لى ما شغلك عنا قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى فجلست فلما انصرف الناس دفع الى صرة وقال استمتع بها فنظرت فاذا فيها مائة درهم وقال لى الزم الحلقة واذا فرغت هذه فاعلمنى فازمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ثم كان يتعهدنى وما أعلمه بخل على قط ولا أخبرته بنفاد شئ وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت . ثم قال الخطيب (وحكى) أن والد أبى يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلا صغيرا وأن أمه هى التى أنكرت عليه حضور حلقة أبى حنيفة ثم روى الخطيب أيضا بسند متصل الى على بن الجعد قال أخبرنى أبو يوسف القاضى قال توفى أبى وخلفنى صغيرا فى حجر أمى فاسلمتنى الى قصار أخدمه فكنت أدع القصار وأمر الى حلقة أبى حنيفة رضى الله عنه فاجلس أسمع فكانت أمى تجىء وتخلنى الى الحلقة فتأخذ بيدى فتذهب بى الى القصار وكان أبو حنيفة رضى الله عنه يعنى بى لما يرى من حضورى وحرصى على التعلم فلما كثر ذلك على أمى وطال عليها هربى قالت لابى حنيفة ما لهذا الصبى فساد غيرك هذا صبى يتيم لا شئ له وانما أطعمه من مغزلى وآمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه فقال لها أبو حنيفة مهرى يا رعناء هاهو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق فانصرفت عنه وقالت له أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك ثم لزمته فنفعنى الله تعالى بالعلم ورفعنى حتى تقلدت القضاء وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته فلما كان فى بعض الايام قدم الى هرون الرشيد فالوذجة فقال لى يا يعقوب كل منها فليس فى كل يوم يعمل لنا مثلها فقلت وما هذا يا أمير المؤمنين فقال هذه فالوذجة بدهن الفستق

فضحكت فقال لي مم ضحكك فقلت خيرا أبقى الله أمير المؤمنين قال لتخبرني وألح علي فاخبرته بالقصة من أولها الى آخرها فتعجب من ذلك وقال لعمري ان العلم لينفع دنيا ودينا وترحم على أبي حنيفة وقال كان ينظر بعين عقله مالا ينظره بعين رأسه (وحكى) على بن المحسن التنوخي عن أبيه عن جده قال كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد انه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رضي الله عنه فحدث بعض القواد في عين فطلب فقيها يستفتيه فجيء به الى أبي يوسف فأفتاه فلم يحنث فوهب له دنانير وأخذه دارا بالقرب منه ودخل ذلك القائد يوما على الرشيد فوجده مغموما فسأله عن سبب غمه فقال شئ من أمر الدين قد أحزنني فاطلب لي فقيها كي أستفتيه فجاء بأبي يوسف قال أبو يوسف فلما دخلت الى عمر بن الدور رأيت فتى حسنا عليه أثر الملك وهو في حجرة محبوس فأومأ الي بأصبعه مستغيثا فلم أفهم منه ارادته وأدخلت الى الرشيد فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي ما اسمك فقلت يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين قال ما تقول في امام شاهد رجلا يزني هل يحده قلت لا فقال فانها سجد الرشيد فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار الي بالاستغاثة هو الزاني ثم قال الرشيد من أين قلت هذا قلت لان النبي صلى الله عليه وسلم قال ادرؤا الحدود بالشبهات وهذه شبهة يسقط الحد معها قال وأي شبهة مع المعاينة قلت ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى والحدود لا تكون بالعلم وليس لاحد أخذ حقه بعلمه فسجد مرة أخرى وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار فخرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته وصار ذلك أصلا للنعمة ولزمت الدار فكان الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء قلت وهذا يخالف ما نقلته قبل هذا من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء والله أعلم بالصواب وقال طلحة بن محمد بن جعفر أبو يوسف مشهور الامر ظاهر الفضل وهو صاحب أبي حنيفة وأفقه أهل عصره ولم يتقدمه أحد في زمانه وكان انتهاؤه في العلم والحكم والرياسة والقدر وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الارض قال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى ولكنه هو الذي نشر قولهما وبث علمهما وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضا خيف عليه منه فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال ان مت هذا الفتى فانه أعلم من عليها وأومأ الى الارض وقال أبو يوسف سألني الاعمش عن مسئلة فأجبته عنها فقال لي من أين لك هذا فقلت من حديثك الذي حدثتناه أنت ثم ذكرت له الحديث فقال لي يا يعقوب اني لاحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن وقال ابن يحيى

كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازى وأيام العرب وكان أقل علومه الفقه ولم يكن فى أصحاب أبى حنيفة مثل أبى يوسف وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهروانى فى كتاب الجليس والانيس عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال مضى أبو يوسف ليستمع المغازى من محمد بن اسحق أو من غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة أياما فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت فقال له أبو يوسف انك امام وان لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤس الملأ أيما كان أولا وقعة بدر أو أحد فانك لا تدرى أيتهما كانت قبل الاخرى فامسك عنه وذكر فى الكتاب المذكور أيضا عن على بن الجعد أن القاضى أبا يوسف كتب يوما كتابا وعن يمينه انسان يلاحظ ما يكتبه فغطن له أبو يوسف فلما فرغ من الكتابة التفت اليه وقال له هل وقفت على شئ من خطأ فقال لا والله ولا حرف واحد فقال له أبو يوسف جزيت خيرا حيث كفيتنا مؤنة قراءته ثم أنشد

كأنه من سوء تأديبه * أسلم فى كتاب سوء الادب

وقال حماد بن أبى حنيفة رأيت أبا حنيفة يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فى مسئلة فلا يقول أبو يوسف قولا الا أفسده زفر ولا يقول زفر قولا الا أفسده أبو يوسف الى وقت الظهر فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر وقال لا تطمع فى رياسة ببلدة فيها أبو يوسف وقضى لابى يوسف على زفر ولم يكن بعد أبى يوسف فى أصحاب أبى حنيفة مثل زفر وقال طاهر بن أحمد الزبيرى كان يجلس الى أبى يوسف رجل فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تتكلم فقال بلى متى يفطر الصائم فقال اذا غابت الشمس فقال فان لم تغب الى نصف الليل فضحك أبو يوسف وقال أصبت فى صمتك وأخطأت أنا فى استدعاء نطقك ثم تمثل

عجبت لازراء الغبى بنفسه * وصمت الذى قد كان بالقول أعلما

وفى الصمت ستر للغبى وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومن كلام أبى يوسف صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة وكان يقول رؤس النعم ثلاثة أولها نعمة الاسلام التى لا تتم نعمة الا بها والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة الا بها والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش الا بها وقال على بن الجعد سمعت أبا يوسف يقول العلم شئ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك وأنت اذا أعطيته كلك من اعطائه البعض على غرر وكان أبو يوسف راكبا وغلامه يعدو وراءه فقال له رجل أتستحل أن يعدو غلامك وراءك لم لا تركبه فقال له أيجوز عندك أن أسلم غلامى مكاريا قال نعم قال أبو يوسف فيعدو معى كما كان يعدو لو كان مكاريا وقال يحيى بن عبد الصمد خوصم أمير المؤمنين الهادى الى القاضى أبى يوسف فى بستان وكان الحكم فى الظاهر للهادى وفى الباطن خلاف ذلك فقال الهادى للقاضى أبى يوسف ما صنعت فى الامر الذى تنازع اليك فيه

فقال خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق فقال له الهادي ترى ذلك قال فقد كان ابن أبي ليلى يراه فقال اردد البستان عليه وانما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف وقال بشر بن الوليد الكندي قال لي القاضي أبو يوسف بينا أنا البارحة قد أويت لى فراشي فاذا دق يدق الباب دقا شديدا فأخذت علي ازاري وخرجت فاذا هرثمة بن الاعين فسلمت عليه فقال أجب أمير المؤمنين فقلت يا أبا حاتم لي بك حرمة وهذا وقت كما ترى ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لامر من الامور فان أمكنك أن تدفع عني ذلك الى غد فلعله أن يحدث له رأي فقال مالي الى ذلك سبيل قلت كيف كان السبب قال خرج الي مسرور الخادم فأمرني أن آتي بك أمير المؤمنين فقلت أتأذن لي أن أصب على ماء وأتحنط فان كان أمر من الامور كنت قد أحكمت شأني وان رزق الله العافية فلن يضرني فأذن لي فدخلت فلبست ثيابا جددا وتطيبت بما أمكن من الطيب ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هرون الرشيد فاذا مسرور واقف فقال له هرثمة قد جئت به فقلت لمسرور يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي وهذا وقت ضيق أفتدري لم طلبني أمير المؤمنين قال لا فقلت فمن عنده قال عيسى بن جعفر قلت ومن قال ما عندهما ثالث ثم قال لي هرثمة فاذا صرت في الصحن فانه في الرواق وهو ذاك جالس فخر لك رجلك في الارض فانه سيسألك فقل أنا قال أبو يوسف فجئت ففعلت ذلك فقال من هذا فقلت يعقوب فقال ادخل فدخلت فاذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر فسلمت فرد السلام علي وقال أظننا روعناك فقلت اي والله وكذلك من خلفي فقال اجلس فجلست حتى سكن روعي ثم التفت الي وقال يا يعقوب أتدري لم دعوتك قلت لا قال دعوتك لاشهدك على هذا أن عنده جارية سألته أن يهبها الى فامتنع وسألته أن يبيعها فأبى والله لئن لم يفعل لاقتلنه قال أبو يوسف فالتفت الى عيسى فقلت وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك في هذه المنزلة فقال لي عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي قلت وما في هذا من الجواب قال ان علي يمينا بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملكه أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها فالتفت الي الرشيد فقال هل له في ذلك من مخرج قلت نعم قال وما هو قلت يهب لك نصفها ويبيعك نصفها فيكون لم يهب ولم يبع فقال عيسى ويجوز ذلك قلت نعم قال فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار فقال له الرشيد قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار ثم طلب منه الجارية فأتي بالجارية والمال فقال خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها فقال الرشيد يا يعقوب بقيت واحدة فقلت وما هي فقال هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ والله لئن لم أبت معها ليلتي هذه اني لاظن أن نفسي ستخرج فقلت يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها فان الحرة لا تستبرأ قال فاني قد أعتقتها فمن يزوجنيها فقلت أنا فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحدت الله تعالى

ثم زوجته اياها على عشرين ألف دينار ودعا بالمال فدفعه اليها ثم قال لى يا يعقوب انصرف ورفع رأسه الى مسرور وقال يا مسرور فقال لبيك قال احمل الى يعقوب مائتى ألف درهم وعشر بن تختا ثيابا فحمل معى ذلك قال بشر بن الوليد فالتفت الى أبو يوسف وقال هل رأيت بأسا فيما فعلت فقلت لا قال خذ حقك من هذا المال قلت وما حقى قال العشر قال بشر فشكرته ودعوت له وذهبت لاقوم فاذا بجوز قد دخلت فقالت يا أبا يوسف ان ابنتك تقرئك السلام وتقول لك والله ما وصل الى فى ليلتى هذه من أمير المؤمنين الا المهر الذى قد عرفته وقد حملت اليك النصف منه وخلفت الباقى لما أحتاج اليه فقال ردديه فوالله لا قبلتها أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لى بهذا قال بشر فلم نزل نطلب اليه أنا وعمومتى حتى قبلها وأمر لى منها بألف دينار وقال أبو عبد الله اليوسفى ان أم جعفر زبيدة زوجة الرشيد كتبت الى أبى يوسف ما ترى فى كذا وأحب الاشياء الى أن يكون الحق فيه كذا فأفتاها بما أحبت فبعثت اليه بحق فضة فيه خفاق فضة مطبقات فى كل واحد لون من الطيب وفى جام دراهم وسطها جام فيه دنانير فقال له جليس له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهديت له هدية بخلساؤه شركاؤه فيها فقال أبو يوسف ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر وقال يحيى بن معين كنت عند أبى يوسف القاضى وعنده جماعة من أصحاب الحديث وغيرهم فوافته هدية أم جعفر الحنوت على تخوت دبيقى ومصمت وشرب وطيب وغالية ند وغير ذلك فذاكرنى رجل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها فسمعه أبو يوسف فقال أنى تعرض ذلك انما قال النبى صلى الله عليه وسلم والهدايا يومئذ الاقط والتمر والزبيب ولم تكن الهدايا مائة ون يا غلام اشل الى الخزائن ونقلت من كتاب اسمه الاغانى ولم يذكر فيه من هو ومصنفه قال كان عبد الرحمن بن مسهر أخو على ابن مسهر قاضيا على المبارك (قلت) المبارك بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الالف راء مفتوحة وبعدها كاف وهى بليدة بين بغداد وواسط على شاطئ دجلة قال فبلغ القاضى خروج الرشيد الى البصرة ومعه أبو يوسف القاضى فى الحراقة فقال عبد الرحمن القاضى لاهل المبارك أتثنون على عند أمير المؤمنين وعند القاضى أبى يوسف فأبوا عليه ذلك فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود وجاء الى الشريعة فلما أقبلت الحراقة رفع صوته وقال يا أمير المؤمنين نعم القاضى قاضينا قاضى صدق ثم مضى الى شريعة أخرى وقال بمثل مقالته الاولى فالتفت هرون الرشيد الى أبى يوسف وقال يا يعقوب هذا شر قاض فى الارض قاض فى موضع لا يثنى عليه الا رجل واحد فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضى يثنى على نفسه قال فضحك هرون وقال هذا أظرف الناس هذا لا يعزل أبدا وكان الرشيد اذا ذكره يقول هذا لا يعزل أبدا وقيل لابى يوسف

أتولى مثل هذا القضاء فقال انه أقام ببابي مدة وشكا الى الحاجة فوليته وقال أبو العباس أحمد ابن يحيى المعروف بثعلب صاحب كتاب الفصيح أخبرني بعض أصحابنا أن الرشيد قال لابي يوسف بلغني أنك تقول ان هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة فقال نعم يا أمير المؤمنين قال وكيف ذاك قال لان من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره فتبسم الرشيد وقال صدقت وقال محمد بن سماعة سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول اللهم انك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه (قلت) وهذا الكلام مأخوذ من قول أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد رؤي يمسح على خفيه فقيل له أتجوز المسح قال نعم قد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن جعل عمر بينه وبين الله فقد استوثق ذكر هذا ابن قتيبة في ترجمة علي رضي الله عنه وأخبار أبي يوسف كثيرة وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ألفاظا عن عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هرون ومحمد بن اسمعيل البخاري وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم ينبو السمع عنها فتركت ذكرها والله أعلم بحاله وكانت ولادة القاضي أبي يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة وتوفي يوم الخميس أول وقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد وقيل توفي سنة اثنتين وتسعين ومائة والاول أصح وولي القضاء سنة ست وستين ومائة ومات وهو على القضاء رحمه الله تعالى وأما ولده يوسف فانه كان قد نظر في الرأي وفقه وسمع الحديث من يونس بن أبي اسحق السبيعي والسري بن يحيى وغيرهما وولي القضاء بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه وصلى بالناس الجمعة في مدينة المنصور بأمر هرون الرشيد ولم يزل على القضاء الى أن مات في رجب سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد وذكر الخطيب البغدادي أن أبا يوسف القاضي لما مات ولى الرشيد مكانه أبا البختري وهب بن وهب القرشي وكان أبو يعقوب الخريمي الشاعر المشهور صديقا لابي يوسف ولابنه يوسف فلما توفي أبو يوسف سمع الخريمي رجلا يقول اليوم مات الفقه فأنشد الخريمي

ياناعي الفقه الى أهله * ان مات يعقوب ولا تدري
لم يمت الفقه ولكنه * حول من صدر الى صدر
ألقاه يعقوب الى يوسف * فزال من صلب الى ظهر
فهو مقيم فاذا ماثوى * وحل حل الفقه في قبر

رحمهما الله تعالى وخنيس بضم الخاء المعجمة تصغير أخنس وهو الذى تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع قليل فى الارنبة فالرجل أخنس والمرأة خنساء وهذا التصغير يسمى تصغير ترخيم وحقيقته أن تحذف منه الحروف الزوائد ويصغر الباقى كما قالوا أزهر وزهير وأسود وسويد وأحمد وحميد وغير ذلك وحبتة بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوقها ثم هاء ساكنة وكشفت عن معنى هذا الاسم فى عدة مواضع من كتب اللغة وغيرها فلم أجده وبحير بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وقيل هو بضم الباء وبالجيم المفتوحة والاول أصح والباقى معروف لا حاجة الى ضبطه وسعد بن حبتة من جملة ما أستصغر يوم احد هو والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنهم فردهم النبى صلى الله عليه وسلم ورآه النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وهو يقاتل قتالا شديدا مع حداثة سنه فدعاه وقال له من أنت فقال سعد بن حبتة فقال أسعد الله جدك ومسح على رأسه رضى الله عنه وخنيس هو صاحب جهار سوخ خنيس بالكوفة وهو لفظ عجمى تفسيره بالعربى أربع طرق لان هذا المكان رحبة مربعة تفترق الى أربع جهات والله تعالى أعلم (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن الاحنف بزذبة وقال ابن ماكولا هو بزدزبه الجعفى بالولاء البخارى الحافظ الامام فى علم الحديث صاحب الجامع الصحيح والتاريخ)

رحل فى طلب الحديث الى أكثر محدثى الامصار وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق والحجاز والشام ومصر وقدم بغداد واجتمع اليه أهلها واعترفوا بفضله وشهدوا بتفرده فى علم الرواية والدراية وحكى أبو عبد الله الحميدى فى كتاب جذوة المقتبس والخطيب فى تاريخ بغداد أن البخارى لما قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ودفعوا الى عشرة أنفس الى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى وأخذوا الموعد للمجلس فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها من البغداديين فلما اطمأن المجلس باهله انتدب اليه واحد من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث فقال البخارى لا أعرفه فسأله عن آخر فقال لا أعرفه فما زال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون الرجل فهم ومن كان منهم ضد ذلك يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الفهم ثم انتدب رجل آخر من العشرة

فسأله عن حديث من تلك الاحاديث المقلوبة فقال البخاري لا أعرفه فسأله عن الآخر فقال لا أعرفه فلم يزل يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الاحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على قوله لا أعرفه فلما علم البخاري أنهم فرغوا التفت الى الاول منهم فقال أما حديثك الاول فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه وفعل بالآخرين كذلك ورد متون الاحاديث كلها الى أسانيدها وأسانيدها الى متونها فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل وكان ابن صاعد اذا ذكره يقول الكبش النطاح ونقل عنه محمد بن يوسف الفربري أنه قال ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وعنه أنه قال صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة خرجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة فيما بيني وبين الله وقال الفربري سمع صحيح البخاري تسعون ألف رجل فما بقي أحد يروي عنه غيري وروى عنه أبو عيسى الترمذي وكانت ولادته يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة وقال أبو يعلى الخليلي في كتاب الارشاد ان ولادته كانت لاثنتي عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور وتوفي ليلة السبت بعد صلاة العشاء وكانت ليلة عيد الفطر ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومائتين بخرتنك رحمه الله تعالى وذكر ابن يونس في تاريخ الغرباء أنه قدم مصر وتوفي بها وهو غلط والصواب ما ذكرناه ههنا وكان خالد بن احمد بن خالد الذهلي أمير خراسان قد أخرجه من بخارى الى خرتنك ثم حج خالد المذكور فوصل الى بغداد فحبسه الموفق بن المتوكل أخو المعتمد الخليفة فمات في حبسه وكان البخاري نحيف الجسم لا بالطويل ولا بالقصير وقد اختلف في اسم جده فقيل انه يزدبه بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الزاي وكسر الذال المعجمة وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة وقال أبو نصر بن ماكولا في كتاب الاكمال هو يزدزبه بدال وزاي وباء معجمة بواحدة والله أعلم وقال غيره كان هذا الجد مجوسيا مات على دينه وأول من أسلم منهم المغيرة ووجدته في موضع آخر عوض يزدبه الاحنف ولعل يزدبه كان أحنف الرجل والبخاري بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة وبعد الالف راء هذه النسبة الى بخارى وهي من أعظم مدن ما وراء النهر بينها وبين سمرقند مسافة ثمانية أيام وخرتنك بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون النون وبعدها كاف وهي قرية من قرى سمرقند وقد سبق الكلام على الجعفي ونسبة البخاري الى سعيد بن جعفر الجعفي والي خراسان وكان له عليهم الولاء فنسبوا اليه (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب حجة الاسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي)

لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني ثم قدم نيسابور واختلف الى دروس امام الحرمين أبي المعالي الجويني وجدّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الاعيان المشار اليهم في زمن أستاذه وصنف في ذلك الوقت وكان استاذه يتبجح به ولم يزل ملازماله الى أن توفي في التاريخ المذكور في ترجمته فخرج من نيسابور الى العسكر ولقي الوزير نظام الملك فاكرمه وعظمه وبالغ في الاقبال عليه وكان بحضرة الوزير جماعة من الافاضل فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس وظهر عليهم واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان ثم فوض اليه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد فجاءها وباشر القاء الدروس بها وذلك في جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته ثم ترك جميع ما كان عليه في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمائة وسلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الحج فلما رجع توجه الى الشام فاقام بمدينة دمشق مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه وانتقل منها الى بيت المقدس واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ثم قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة ويقال انه قصد منها الركوب في البحر الى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالامير يوسف بن ناشفين صاحب مراكش فبينما هو كذلك بلغه نعي يوسف بن ناشفين المذكور فصرف عزمه عن تلك الناحية

ثم عاد الى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهر منها كتاب الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه ومنها احياء علوم الدين وهو من أنفس الكتب وأجلها وله في أصول الفقه المستصفى فرغ من تصنيفه في سادس المحرم سنة ثلاث وخمسمائة وله المنخول والمتخل في علم الجدل وله تهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمقاصد والمضنون به على غير أهله والمقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى ومشكاة الانوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وكتبه كثيرة وكلها نافعة ثم ألزم بالعود الى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية فاجاب الى ذلك بعد تكرار المعاودات ثم ترك ذلك وعاد الى بيته في وطنه واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس الى أن انتقل الى ربه ويروى له شعر فمن ذلك ما نسبه اليه الحافظ أبو سعد السمعاني في الذيل وهو قوله

حلت عقارب صدغه في خدّه * فسرا تجل بها عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها * فمن العجائب كيف حلت فيه

ورأيت هذين البيتين فى موضع آخر لغيره والله أعلم ونسب اليه العماد الاصبهانى هذين البيتين وهما

هبنى صبوت كما تزعمون بزعمكم * وحظيت منه بلثم خد أزهرى
انى اعتزلت فلا تلوموا انه * أضحى يقابلنى بوجه أشعرى

ونسب اليه البيتين اللذين قبلهما وكانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة وقيل سنة احدى وخمسين وتوفى يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة بالطابران رحمه الله تعالى ورثاه الاديب أبو المظفر محمد الابيوردى الشاعر المشهور بابيات فائقة من جملتها

مضى وأعظم مفقود فجعت به * من لا نظير له فى الناس يخلفه

وتمثل الامام اسمعيل الحاكمى بعد وفاته بقول أبى تمام من جملة قصيدة مشهورة

عجبت لصبرى بعده وهو ميت * وكنت امرأ أبكى دما وهو غائب
على أنها الايام قد صرن كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب

ودفن بظاهر الطابران وهى قصبة طوس والطابران بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وراء مهملة وبعد الالف النانية نون وهى احدى بلدتى طوس (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

(أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى الزمخشرى الامام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان)

كان امام عصره من غير مدافع تشد اليه الرحال فى فنونه أخذ الادب عن أبى منصور نصر وصنف التصانيف البديعة منها الكشاف فى تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله والمحاجاة بالمسائل النحوية والمفرد والمركب فى العربية والفائق فى تفسير الحديث وأساس البلاغة فى اللغة وربيع الابرار ونصوص الاخبار ومتشابه أسامى الرواة والنصائح الكبار والنصائح الصغار وضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض والمفصل فى النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير والانموذج فى النحو والمفرد والمؤلف فى النحو ورؤس المسائل فى الفقه وشرح ابيات سيبويه والمستقصى فى امثال العرب وصميم العربية وسوائر الامثال وديوان التمثيل وشقائق النعمان فى حقائق النعمان وشافى العى من كلام الشافعى رضى الله عنه والقسطاس فى العروض ومعجم الحدود والمنهاج فى الاصول ومقدمة الادب وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسالة الناصحة والامالى فى كل فن وغير ذلك وكان شروعه فى تأليف المفصل فى غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة وفرغ منه فى غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان قد سافر الى مكة حرسها الله تعالى وجاور بها زمانا فصار يقال له جار الله لذلك وكان هذا الاسم علما عليه وسمعت من بعض

المشايخ أن احدى رجليه كانت ساقطة وأنه كان يمشي في جارن خشب وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله وانه كان ببلده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة والثلج والبرد كثيرا ما يؤثران في الاطراف في تلك البلاد فتسقط خصوصا خوارزم فانها في غاية البرد ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب فلا يستبعده من لا يعرفه ورأيت في تاريخ بعض المتأخرين أن الزمخشري لما دخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله فقال دعاء الوالدة وذلك اني كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي فادركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط فتألمت والدتي لذلك وقالت قطع الله رجلك الا بعد كما قطعت رجله فلما وصلت الى سن الطلب رحلت الى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي وعملت على عملا أوجب قطعها والله أعلم بالصحة وكان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهرا به حتى نقل عنه أنه كان اذا قصد صاحبا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الاذن قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب وأول ما صنف كتاب الكشاف كتب استفتاح الخطبة الحمد لله الذي خلق القرآن فيقال انه قيل له متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه فغيره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن وجعل عندهم بمعنى خلق والبحث في ذلك يطول ورأيت في كثير من النسخ الحمد لله الذي أنزل القرآن وهذا اصلاح الناس لا اصلاح المصنف وكان الحافظ أبو الظاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله تعالى قد كتب اليه من الاسكندرية وهو يومئذ مجاور بمكة حرسها الله تعالى يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فرد جوابه بما لا يشفي الغليل فلما كان في العام الثاني كتب اليه أيضا مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها ولا يحوج أدام الله توفيقه الى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل وله في ذلك الاجر الجزيل فكتب اليه الزمخشري جوابه ولولا خوف التطويل لكتبت الاستدعاء والجواب لكن نقتصر على بعض الجواب وهو ما مثلي مع اعلام العلماء الا كمثل السها مع مصابيح السماء والجهام الصفر من الرهام مع الغوادي الغامرة للقيعان والاكام والسكيت المخلف من خيل السباق والبغاث مع الطير العتاق وما التلقيب بالعلامة الا شبه الرقم بالعلامة والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ظلي فيه أقلص من ظل حصاة أما الرواية فحديثة الميلاد قريبة الاسناد لم تستند الى علماء نحارير ولا الى أعلام مشاهير وأما الدراية فمثلي لا يبلغ أقواها وبرض ما يبل شفاها ثم كتب بعد هذا ولا يغرنكم قول فلان في

ولاقول فلان وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء ممدوحه بقاطيع من الشعر وأوردها كلها ولاحاجة الى الاتيان بها ههنا فلما فرغ من ايرادها كتب فان ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وتبليغ الشفقة على المستفيدين وقطع المطامع عنهم وافادة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والرب بها عن السفاسف الدنيئات والاقبال على خويصتى والاعراض عما لا يعنينى فخلت فى عيونهم وغلطوانى ونسبونى الى ما لست منه فى قبيل ولا دبير وما أنا فيما أقول بها ضم لنفسى كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قول أبى بكر الصديق رضوان الله عليه وليتكم ولست بخيركم ان المؤمن ليهضم نفسه وانما صدقت الفاحص عنى وعن كنه روايتى ودرايتى ومن لقيت وأخذت عنه وما بلغ علمى وقصارى فضلى وأطلعته طلع أمرى وأفضيت اليه بخبيئة سرى وألقيت اليه بحرى وبجرى وأعلمته بحمى وشجرى وأما المولد فقريه بجهولة اسمها خوارزم تسمى زمخشر وسمعت أبى رحمه الله تعالى يقول لا خير فى شرود ولم يلم بها ووقت الميلاد شهر الله الاصم فى عام سبع وستين وأربعمائة والله المحمود والمصلى على محمد وآله وأصحابه هذا آخر الاجازة وقد أطال الكلام فيها ولم يصرح له بمقصوده فيها وما أعلم هل اجازه بعد ذلك أم لا وبينى وبينه فى الرواية شخص واحد فانه اجاز زينب بنت الشعرى ولى منها اجازة ومن شعره السائرى قوله وقد ذكره السمعانى فى الذيل قال أنشدنى أحمد بن محمود الخوارزمى املاء بسمرقند قال أنشدنا محمود بن عمر الزمخشرى لنفسه بخوارزم وذكر الابيات وهى

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر * ومايطلب النجل من أعين البقر
فانا اقتصرنا بالذين تضايقت * عيونهم والله يجزى من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة * ولم أر فى الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أنس اذ غازلته قرب روضة * الى جنب حوض فيه للماء مخدر
فقلت له جئنى بورد وانما * أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظرنى رجع طرف أجئ به * فقلت له هيهات مالى منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر * فقلت له انى قنعت بما حضر

ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر منصورا المذكور أولا

وقائلة ما هذه الدرر التى * تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذى كان قد حشا * أبو مضر أذنى تساقط من عينى

وهذا مثل قول القاضي أبي بكر الارجاني ولا أعلم أيهما أخذ من الآخر لانهما كانا متعاصرين وهو

لم يكن الحديث قراقكم * لما أسررته الى مودعي
هو ذلك الدر الذي أودعتم * في مسمعي أجريته من مدمعي

وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة بديعة ومن المنسوب الى القاضي الفاضل في هذا المعنى

لا تردني نظرة ثانية * كفت الاولى ووفت ثمني
لك في قلبي حديث مودع * لا يجدد الحب ما أودعني
خذه من جفني عقودا انه * بعض ما أودعته في أذني

ومما أنشده لغيره في كتابه الكشاف عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فانه قال أنشدت لبعضهم

يا من يرى مد البعوض جناحها * في ظلمة الليل البهيم الاليل
يرى عروق نياطها في نحرها * والمخ في تلك العظام النحل
غفرا لعبد تاب من فرطاته * ما كان منه في الزمان الاول

وكان بعض الفضلاء قد أنشد في هذه الابيات بمدينة حلب وقال ان الزمخشري المذكور أوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الابيات ثم أنشد الفاضل الرئيس بيتين وذكر أن صاحبهما أوصى أن يكتبا على قبره وهما

الهي قد أصبحت ضيفك في الثرى * وللضيف حق عند كل كريم
فهب لي ذنوبي في قراي فانها * عظيم ولا يقرى بغير عظيم

وأخبرني بعض الاصحاب أنه رأى بجزيرة سواكن تربة ملكها عزيز الدولة ريحان وعلى قبره مكتوب

يا أيها الناس كان لي أمل * قصر بي عن بلوغه الاجل
فليتق الله ربه رجل * أمكنه قبل موته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى * كل الى ما نقلت ينتقل

وكانت ولادة الزمخشري يوم الاربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة رحمه الله تعالى ورثاه بعضهم بأبيات ومن جملتها

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها * حزنا لفرقة جار الله محمود

وزمخشر بفتح الزاى والميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة وبعدها راء وهى قرية كبيرة من قرى خوارزم وجرجانية بضم الجيم الاولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الالف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة وهى قصبة خوارزم قال ياقوت الحموى فى كتاب البلدان يقال لها بلغتهم كركانج وقد عربت فقيل لها الجرجانية وهى على شاطئ جيحون والله تعالى أعلم بالصواب (من كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان)

الشريشى

هو الكمال أبو العباس أحمد من أهل شريش وله تآليف أفاد بها وأجاد فيها منها جمع مشاهير قصائد العرب وشروح المقامات الحريرى كبير ووسط وصغير وفى الكبير من الآداب مالا كفاءله لم يترك منها فائدة الا استخرجها ولا فريدة الا استدرجها ولا نكتة الا علقها ولا غريبة الا استحقها بقاء شرحه يغنى عن كل شرح وكان الشريشى يقرئ العربية وأخذ عنه جماعة وأقام فى بلنسية ثم رحل الى اشبيلية وانتقل الى المشرق وكانت وفاته بشريش بلده سنة ٦١٩ وميلاده سنة ٥٥٧ هجريه (للمقرى)

أبو الفدا

هو اسماعيل بن على بن شاذى الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا صاحب حماة برع فى الفقه والاصول والعربية والتاريخ والادب وصار من جملة أمراء دمشق الى أن كان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك وبالغ فى خدمته الى أن وعده الملك الناصر محمد بسلطنة حماة وجعل سلطانها يفعل فيها مايشاء ليس لاحد معه كلام ولا يرد عليه مرسوم من القاهرة بأمر ولا نهى وأركبه بشعار السلطنة ومشى الامراء والاكابر فى خدمته حتى مشى الامير ارغون النائب بالديار المصرية وقام له الملك الناصر بكل مايحتاج اليه من التشريف والانعامات على وجوه الدولة والخيول لقماش الذهب وغير ذلك ولقبه بالملك الصالح وأمره بالتوجه الى محل سلطنته بحماة فخرج اليها من ديار مصر بتجمل زائد وعظمة على عادة الملوك فوصلها فى جمادى الآخرة سنة عشر وسبعمائة ثم عن قليل غير السلطان لقبه ولقبه بالملك المؤيد وذلك لما تزوج معه فى سنة تسع عشرة وسبعمائة وعاد معه الى القاهرة وأذن له أن يخطب باسمه بحماة واعمالها على ما كان عليه سلفه من ملوك حماة وكان الملك المؤيد فى كل قليل يتوجه من حماة الى القاهرة ومعه أنواع من الهدايا والتحف للملك الناصر محمد بن قلاوون ويعود الى محل سلطنته ثم فى كل قليل يتحف الملك الناصر بالاشياء الظريفة الغريبة قال بعضهم فى وصفه هو الملك الجليل وامام ظل ظليل عالم تخفق بالنصر أعلامه وحاكم تجرى بصالح الرعية أقلامه بيته مشيد وملكه مؤيد وصدره للطالبين مشروح وبابه لارباب الفضائل مفتوح كان جوادا سخيا باسلا كميا ممدوحا محمودا منتابا مقصودا ذا تدبير وسياسة وحشمة ورئاسة

وفضل ومكارم وحلم ومراحم وعدل وانصاف ومعروف وأوقاف يحب أهل العلم والادب ويفيض عليهم سحائب القرب والقرب زاحم بهمته النجوم وشارك في عدة من العلوم وألف تاريخا كثير الفوائد ونظم الحاوي نظما يسخر بالعقود والفلائد وله مصنفات معروفة وقريض به قراضة ذهبه موصوفة باشر النيابة ثم السلطنة بحماة مدة طويلة وأسدى الى سكان حماة ما استوجب به شكر مناقبه الجميلة

وكان له نظم ونثر وتصانيف كثيرة وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وكتاب الموازين وكانت وفاته بحماة سنة ٧٤٣ وميلاده سنة ٦٧٢ هجريه ودفن في تربته المعروفة باسمائه عن سبعين سنة ورثاه محمد بن نباته المصري بعدة مرات أشهر ما قوله

ما للمنادي لا يلبي صوت داعيه * أظن أن ابن شاذي قام ناعيه
ما للرجاء قد استدت مذاهبه * وللزمان قد اسودت نواحيه
مالي أرى الملك قد فضت مواقفه * مالي أرى الوفد قد فاضت مآقيه
نعي المؤيد ناعيه فيا أسفا * للغيث كيف غدت عنا غواديه
وا روعتا لصباح من رزيته * أظن أن صباح الحشر ثانيه
وا حسرتاه لنظمي في مدائحه * كيف استحال لنظمي في مراثيه
أبكيه بالدر من جفني ومن كلمي * والبحر أحسن ما بالدر أبكيه
أروي بدمعي ثرى ملك له شمم * قد كان يذكرها الصادي فترويه
اذيل ماء جفوني بعده أسفا * لما وحهي الذي قد كان يحميه
جار من الدمع لا ينفك يطلقه * من كان يطلق بالانعام جاريه
ومهجة كلما فاهت بلوعتها * قالت رزية مولاها لها ايه
ليت المؤيد لازادت عوارفه * فزاد قلبي المعنى من تلطيه
ليت الاصاغر يفدي الاكبرون بها * فكانت الشهب في الآفاق تفديه

(من كتاب المنهل الصافي لابي المحاسن)

ابن بطوطه

هو أبو عبد الله بن ابراهيم اللواتي الطنجي الملقب بشمس الدين ابن بطوطه وهو الذي طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بحاضرة فاس العلياء وكان مولده بطنجة سنة ثلاث وسبعمائة وتوفي سنه ٧٧٧ وكان خروجه من موطنه عام خمسة وعشرين وسبعمائة وله من العمر اثنتان وعشرون سنة فأخذ يتقلب

في بلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكه ذلك العهد وهو فيروز وجوه وكان له منه مكانة واستعمله بخطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم ساح في الاقطار الصينية والتترية وأواسط آفريقية في بلاد السودان وفي الاندلس ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان من ملوك بني مرين وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض ويأتي من أحواله ما يستغربه السامعون فغمره أبو عنان من احسانه الجزيل وامتنانه الخق الجميل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال فأنفذ اليه الملك الاشارة بان يملي على محمد بن جزي الكلبي ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار فاملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها فامتثل ابن جزي ما أمر به فضم أطراف ما أملاه ابن بطوطة في تصنيف جاء على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا فوسمه بتحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (لابن جزي)

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث)